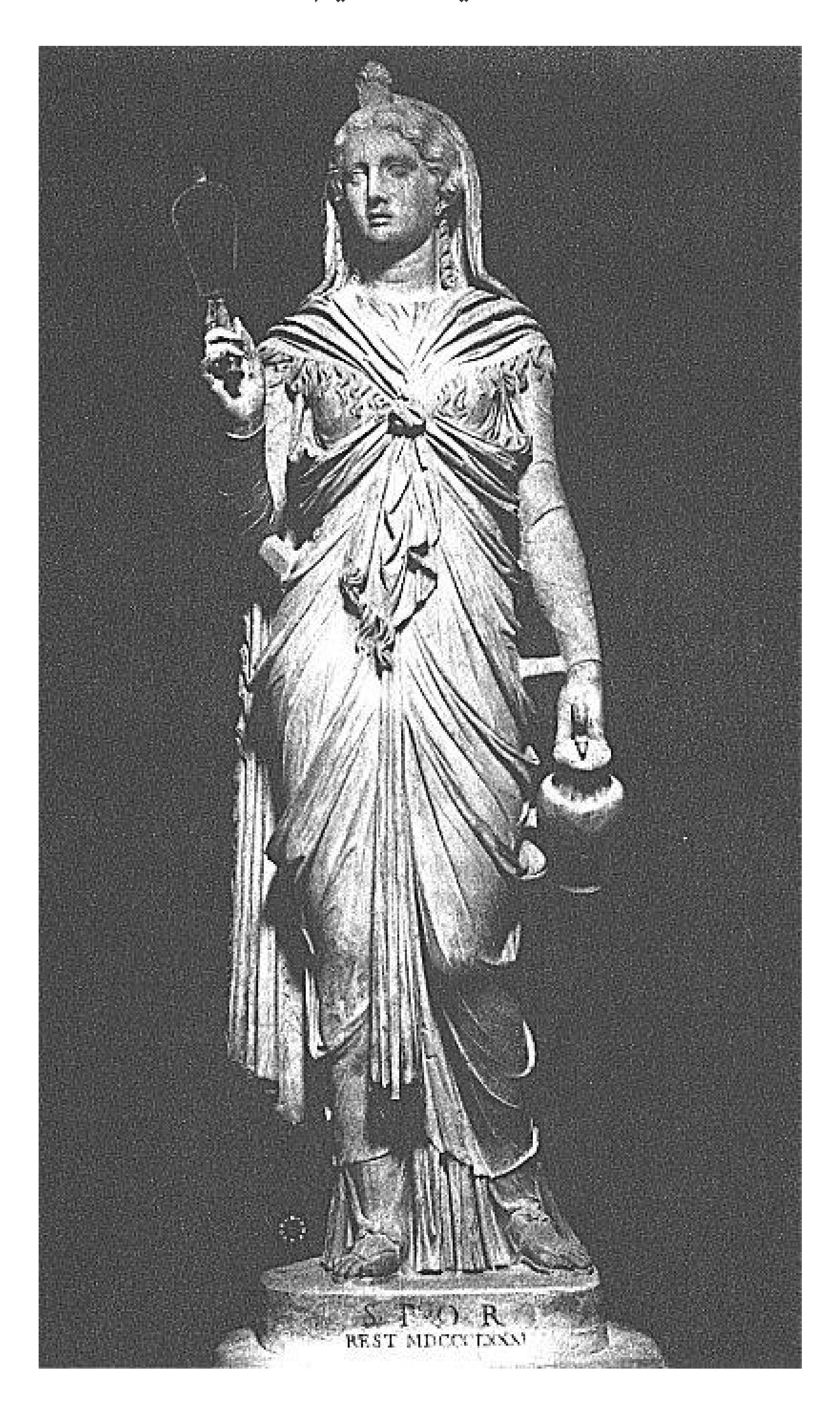
إيـزيـس
تـوفـيق الحكيـم



الفصل الأول

المنظر الأول

)شاطئ النيل في موضع يكثر فيه الغاب والبردى. وقد احمر الأفق مؤذنا بشروق الشمس وخلا المكان إلا من بعض الفلاحات يسرن بما حملن إلى السوق. وإذا بفلاحة شابة تعترض الطريق(..

الفلاحات) :للفلاحة) لماذا رجعت؟

الفلاحة: شيخ البلد على باب السوق، خطف مني أوزتي..

فلاحة عجوز: خطفته التماسيح!.. أهو هناك الساعة؟!. نحن ما بكرنا هكذا إلا لنفلت من يده..

الفلاحة: ما من أحد يفلت اليوم من يده.

العجوز: معي بطة أريد أن أشتي بها قمحا.

الفلاحة: لا تذهبي..!

العجوز: ماذا جرى اليوم في البلد؟!. ما كان يحدث هذا من قبل..!

فلاحة: حتى الشكاوي اليوم لا تفيد. لقد لجأت جارة لي إلى الكاتب توت، فحرر لها شكوى منذ أسبوع وما من صدى..!

فلاحة أخرى :وحتى التعاويذ لا تنفع. لقد صنع لي الساحر توت تعويذة . وما من جدوى لـــ..

فلاحة: كيف ذلك؟ إن تعاويذ توت وعقاربه تنفع دائماً!.. لا أنسى يوم اختفت عنزتي، وجئت إليه في هذه النواحي.. فأنت دائماً تجدينه ها هنا في هذه النواحي التي يكثر فيها القصب والبردى.. لأنه يصنع من القصب مزاميره وأقلامه، ومن البردى قراطيسه وأوراقه..

الفلاحة: أصنع لك تعويذة نافعة؟..

الفلاحة الأخرى: ما رأيت أنفع منها. لقد وجدت بعدها عنزتي المفقودة .. عادت من تلقاء نفسها إلى الدار..

الفلاحة: نعم.. إنه ساحر ماهر!.. ما قولك في أن أذهب إليه ليحضر لي الأوزة المخطوفة؟.!

الفلاحات: فلنذهب إليه جميعاً ليحمينا من شيخ البلد!.. هيا بنا.. هيا بنا.. (يتحركن للانصراف ما عدا العجوز(..

الفلاحات: (للعجوز) ألا تذهبين معنا يا خالة؟.!

العجوز: لا.. سأذهب أنا إلى السوق، ليس معي غير بطة واحدة، أستطيع أن أخفيها في صدرى..

الفلاحات: (يذهبن وهن يصحن مناديات) توت ..!أين أنت يا توت..!

)العجوز تخفي بطتها في صدرها. وما تكاد تتهيأ للنهوض حتى يظهر شيخ البلد آتيا من الجهة الأخرى(..

شيخ البلد: (باحثاً حوله) أين تلك الفلاحة التي هربت من السوق؟..

العجوز: (مضطربة وقد فوجئت) شيخ البلد...!!

شيخ البلد: لماذا اضطربت لمرآي أيتها العجوز؟! أين تلك الفلاحة الهاربة؟.!

العجوز: لم أبصر أحداً..

شيخ البلد : إنها تحمل أوزا..

العجوز :لم أشاهد أوزا ولا بطا..

شيخ البلد: (يفحصها بعينه) وأنت ماذا تحملين؟..

العجوز: (بهدوء وقد تماسكت) تريد أن تعرف ماذا أحمل؟..

شيخ البلد :نعم بالصدق والحق.

العجوز: أحمل شيئاً لي وحدي.

شيخ البلد: تكلمي ولا تخافي ..ماذا تحملين؟..

العجوز: أحمل فقري وهمي وعجزي..!

شيخ البلد: حقاً هذا حمل تحملينه أنت وحدك.. ولكنك تدركين معنى سؤالي.. لست أسألك عن هذا الحمل الذي تحملينه وحدك.. إنما أسألك عن الحمل الآخر الذي يصلح أن يحمله معك غيرك؟.!

العجوز: لا أحمل شيئاً آخر.

شيخ البلد: أتقولين الصدق؟..

العجوز: ما كذبت في حياتي قط..!

)صوت البطة تصيح من صدرها(

شيخ البلد: صوت من هذا..!

العجوز) :مرتبكة) أي صوت تعني..!

شيخ البلد: صوت الصدق الذي خرج الآن من صدرك.. لا تخفيه .. لا تخفيه.. دعيه ينطلق من صدرك حراً طاراً..

العجوز: (متلعثمة (طاراً؟.!

شيخ البلد: مصفقا بجناحيه.. فرحا بالنجاة من هذا الصدر المغلق.. شأن كل سر مكتوم في الصدور.. أخرجيه إلى الهواء .. إلى النور.. هلمي ..!أسرعي.!!

العجوز: (تخرج البطة) خذها!.. إنها كل ما أحمل.

شيخ البلد: (وهو يتناول البطة) أرأيت؟.. ها أنت ذي تحملين شيئاً آخر غير فقرك!.. فلنتعاون إذن على حمل الثقل لأخفف عنك.. أنت تحملين فقرك، وأنا أحمل بطتك!

العجوز: (متنهدة) إنها كل ما أملك.. أردت أن أشتري بها قمحا أصنع منه فطيرة لحفيدي اليتيم!

شيخ البلد :أنا أيضا يتيم.. ثقي من ذلك! وعندما أقول شيئا يجب أن تصدقيه.. إني ما كذبت في حياتي قط.. إلى اللقاء في السوق القادمة أيتها العجوز الصادقة!

)يذهب حاملاً البطة وتنهض العجوز تلطم خديها وتنصرف في الاتجاه الذي سارت فيه زميلاتها الفلاحات منذ قليل.. ولا تمضي لحظة حتى تسمع أصوات مزامير خافتة تخرج من الغاب.. ثم يظهر سبعة رجال على رؤوسهم قلانس كأنها أذناب العقارب، وفي آذانهم أقلام من القصب، وهم ينفخون في المزامير، ما عدا سابعهم ويدعى "مسطاط" وقد تخلف عن صفهم(.....

العقارب: (ينشدون وهم يسيرون في شبه رقص:(

نحن العقارب السبع

هكذا يسموننا..

لأننا نجيد اللسع

وفي أسنان أقلامنا

ترياق وسموم

مسطاط: (صائحا بهم) حان وقت الشروق

واليوم يوم السوق

ونحن نرقص في الطريق

بين ظالم ومظلوم

وسارق ومسروق

العقارب: (ينشدون) حان وقت الشروق واليوم يوم سوق الخ..

)ثم يذهبون تاركين مسطاط يلتفت خلفه كمن ينتظر أحداً... وعندئذ يظهر توت من بين الغاب(....

توت: أسرع يا مسطاط!.. إنهم قد سبقونا.

مسطاط: لن أذهب.

توت: لماذا؟

مسطاط: أيعجبك يا توت هذا الذي يحدث من شيخ البلد؟! أكان يحدث مثل هذا من قبل؟.!

توت: ليس هذا من شأننا.. فلنلحق بإخواننا، لنرفه عن أهل السوق بمزاميرنا...!

مسطاط: أهل السوق ليسوا اليوم في حاجة إلى مزاميرنا. إنهم في حاجة إلى معونتنا، ونحن نختبئ هنا خلف هذا الغاب، ونهرب ممن ينادينا..

توت: ماذا تريد أن نصنع لهؤلاء؟!. لقد تعبت من صنع التمائم والتعاويذ .. إني لست بساحر. إني فنان. سحري هو فني. ولكنهم لا يريدون أن يفهموا ذلك.. هؤلاء السذج!.. إنهم يصرون على تسميتي الساحر، ويلحون في طلب التعاويذ والتمائم.. وقد تركتهم في وهمهم.. ولكنهم تمادوا .. كل حامل قلم عندهم ساحر.. هؤلاء الجهلاء..!

مسطاط: إنهم على صواب.!.

توت: ماذا تقول؟

مسطاط: كل حامل قلم ساحر.. لماذا لا يكون الأمر كذلك؟.!

توت: أنت أيضاً تقول هذا يا مسطاط؟! أنت الذي تدري حقيقة عملنا..

مسطاط: قد يكون لشكوى نكتبها بإخلاص وإيمان فعل السحر.

توت: كتبنا وما من أذن سمعت!

مسطاط: لأنها لم تصل إلى الأذن التي يجب أن تسمع! أنت تعلم ذلك يا توت. إنها لا يمكن أن تقع اليوم إلا في يد المشكو. وأنت تعلم أيضاً من هو المتصرف الحقيقي في البلد اليوم..!

توت: نعم مع الأسف.. طيفون هو المتصرف الحقيقي.

مسطاط: هو وحده الذي يدير من قصره كل شئون المملكة، بينما شقيقه الطيب حاكمنا أوزيريس..

توت: مشغول عن الحكم باكتشافاته واختراعاته .. نعم.. كلنا يقولها ببساطة. ولكن أجبين أنت: هل في ذلك لوم عليه؟.!

مسطاط: ومن الذي يلومه ؟!. أنا آخر من يلومه.. إن علمه وإبتكاراته هي وحدها في نظري كما تعلم، التي درت الخير على هذا البلد.. لولاه ما استطاع الفلاح أن يزرع ولا حضارتنا أن تكون. من ينكر أنه مخترع المحراث والشادوف ومشيد الجسور والقناطر.. ولكن الأمر الذي لا ينكر أيضاً هو أنه ترك شئون الحكم إلى شقيق داهية ماكر يعمل ليصطنع الأنصار ويستميل أشياخ البلد ويتركهم ينهبون الشعب..

)يسمع صوت صياح ونداء(

الصوت) :من بعيد) توت!.. أين أنت يا توت؟.!

توت: هذه امرأة تناديني.. هلم بنا نهرب..!

مسطاط: نهرب؟. نهرب من مثل هذا النداء.. الفاجع؟.!

توت: تلك امرأة ولا شك فقدت بطة أو خطفت منها عنزة.. هذا هو كل النداء الفاجع.. إني أعرفهن.. أعرف هؤلاء النسوة!

مسطاط: فليكن!.. ليس من حقنا الهرب ممن يطلبنا!

المرأة: (صائحة من بعيد) توت يا توت!

توت: (متأهباً للهروب) إني ذاهب.. ابق أنت إذا شئت ما دام الأمر يروق لك..

مسطاط: (يمسك به) لن تذهب!... سنبقى معا.. وسنواجهها، ونعمل من أجلها شيئاً..

)تظهر امرأة تخفي وجهها بنقاب أسود(

المرأة: توت ..!انجدني..!

توت: تكلمي وأسرعي!.. ماذا خطف منك؟ ماذا فقدت؟..!

المرأة :زوجي...

توت: ماذا تقولين؟!.. زوجك؟!

المرأة: نعم.. زوجي..

توت: أعترف أني لم أكن أتوقع ذلك.. المسألة خرجت عن نطاق البطة والأوزة والعنزة!. وصرنا إلى ما هو أكبر من ذلك حجما وقدرا... (يلتفت إلى زميله) أيعجبك هذا يا مسطاط؟.!

المرأة: لا تسخر يا توت. الأمر أخطر مما تظن.!

مسطاط: صدقت المرأة!.. إن فقد زوج ليس بالأمر الذي يدعو إلى السخرية..

المرأة: وأي زوج لو علمم؟!. أتدري يا توت من هو الرجل الذي جئت إليك من أجله؟

توت: من هو..

المرأة: أوزيريس.

توت: ماذا أسمع؟.!

المرأة: نعم .. هو أوزيريس.

توت: أوزيريس الملك؟.!

المراة: (تخلع نقابها) نعم.. زوجي.

توت: (وهو ينظر إليها) إيزيس..!

إيزيس: أنت تعرفني جيدا.. إني ما كنت أجيء إليك في مثل هذه الساعة إلا لأن الذي حدث يستوجب القلق ...بل أكثر من القلق... قلبي يحدثني .. وقلما يخطئ قلبي.. أن كارثة توشك أن تقع.. إن لم تكن وقعت بالفعل...

توت: ماذا حدث لأوزيريس؟!. تكلمي.!

إيزيس: خرج من قصره البارحة ولم يعد حتى الساعة..!

توت: هذا أمر لا أحسبه يدعو إلى كل هذا القلق ..!لعله شغل باختراع جديد أو كشف أخير، واستغرقه العمل فنسي نفسه ونسى الوقت. هذا يحدث له أحيانا.. وأنت تعلمين ذلك حق العلم. إنه في مثل هذه الأيام، كما بلغنا، مشغول بابتكار ساقية جديدة تخرج من الماء أضعاف ما تخرج السواقي القائمة. من يدريك؟.. قد يكون الساعة في مكان ما على النيل يجرب تجربه من تجاربه..

إيزيس: لا.. لم يذهب إلى عمل من أعماله. لقد دعاه أخوه طيفون إلى وليمة عشاء.. وقد ذهب بمفرده إلى قصر أخيه..

توت: وهل سألت عنه في هذا القصر؟..

إيزيس: سألت، فأظهر لي أخوه الدهشة، وقال لي إنه غادر القصر في منتصف الليل، ووعدني بأن يأمر بالبحث عنه في كل مكان.

توت: انتظري إذن نتيجة البحث.

إيزيس: أهذا كل ما تنصحني به؟! ألهذا جئت إليك يا توت؟!. لتلقي إلي بهذه الكلمة؟! لتقول لي: انتظري! أنتظر حتى يبحث لي طيفون عن زوجي؟.!

توت: تريدين أن تبحثي عن زوجك بنفسك؟..

إيزيس: هذا واجبي.

توت :إذن افعلي..!

إيزيس: هذا ما أفعل.. ولهذا جئت إليك ألتمس المعونة..

توت: إني رهن إشارتك، ... كيف أستطيع أن أعاونك في مسألة كهذه..

إيزيس: تستطيع .. إن في قدرتك السحرية ..

توت: عجبا!.. أنت أيضاً تقولين هذا؟.!

إيزيس: وأين غرابة في ذلك؟.!

توت: تلجئين إلى السحر؟!

إيزيس: ألجأ إلى كل وسيلة تدلني على مكان زوجي!

توت: تفعلين مثل أولئك الفلاحات الساذجات، ممن يصدقن أني أصنع المعجزات؟.!

إيزيس: وأي فارق بيني وبينهن؟!. ألست منهن؟! إني امرأة مثل الأخريات. عندما نفقد شيئاً عزيزاً فإنا نلتمس المعجزة حيث تكون.

توت: كل ما أستطيع هو أن أكتب لك شكوى أو تعويذة. أما الشكوى فلا محل لها، لأن الذي بيده الحكم الآن قد وعدك خيرا، وأما التعويذة فإني أصارحك، لما أعلمه من حصافتك، أنها ليست هي التي ستعثر لك على زوجك.

إيزيس: (بألم) لماذا تحطم أملي فيك؟..

توت: أردت أن أبصرك بالحقيقة. في مقدوري أن أكتب لك تعاويذ وتمائم، كما أفعل للآخرين عندما يلحون ، فأذعن لأريح رأسي، ثم يدهشني بعد ذلك قولهن إنهم يجدون بها أحيانا ما يفقدون.. أتريدين أن أصنع لك ذلك؟!. ثقي أن هذا ليس بعمل جدي. إن عملي المجدي حقا تلك المزامير التي أصنعه من القصب.. وهي وحدها التي تحوي كل السحر...

مسطاط) :متدخلا) لا... ولا هذه أيضاً.. إن السحر ليس في المزامير..

توت: فيم إذن؟..

مسطاط: في الإيمان الذي قد تلقيه أحيانا في النفوس...

توت :ربما..

مسطاط: (لإيزيس) إيذني لي يا سيدتي أن أتطفل بالرأي.. إن معجزتك ليست عند توت ولا عندي. إنها عندك أنت..!

إيزيس: عندي أنا؟.!

مسطاط: نعم. في قلبك ..أصغي إلي قلبك وحده!. هو الذي يدلك... هو الذي يقول لك إن زوجك في أمان أو في كرب ..بماذا يهمس لك قلبك الآن؟...

إيزيس: (كالمخاطبة نفسها) إنه في كرب...

مسطاط :هل يهمس لك أيضاً بأن أحداً أراده بسوء!؟

إيزيس: لست أتهم أحداً.. ولكن طيفون ..وهذا لم يعد بالسر الخافي...

توت: ماذا تريدين بهذا التلميح؟. أرأيت يا مسطاط؟ .!ألم أقل لك فلنهرب؟!. إن الأمر سيصل إلى اتهام طيفون.. وسيسفر عن نزاع على الحكم بين شقيقين.. وسنجد أنفسنا بذلك قد جررنا إلى صميم السياسة...!

مسطاط: إذا كان لطيفون يد حقا في الأمر فإن هذا لأدعى...

توت: أدعى إلى ماذا؟.!

مسطاط: إلى أن نقف بجانب هذه السيدة!

توت: (صائحا) ياللكارثة!.. أتدري معنى ما تقول ايها المجنون؟! تريد أن تدخلنا في حرب ضد طيفون؟.!

مسطاط: وما الذي يخيفك؟.. من يحمل قلمك مم يخاف؟.!

توت: قلمي للتسجيل لا للحرب.

مسطاط: قلمك للمحتاجين إليه.

توت: أتريد أن تخرجني من صناعتي؟! أنا توت المسجل.. ألا تعرف أن صناعتي هي أني حامل القلم المسجل.. لا أناصر أحداً ولا أحارب أحداً.. أنا توت المسجل ..المسجل.. أسجل كل شيء... ولا شأن لي بأحد.

مسطاط: لا شأن لك بأحد؟!

توت) :صائحاً) نعم وأقولها بأعلى صوتي؟.!

إيزيس: (ناهضة) لا داعي إلى رفع صوتك يا توت!.. لقد سمعت وفهمت وأشكرك.. سأذهب وحدي للبحث عهن زوجي.. سأعمل وحدي!.. سأجاهد وحدي..!

)تنصرف .. ويطرق توت، بينما يشيعها مسطاط بالنظر الآسف الحزين.. ثم لا يلبث أن ينتفض ناهضا(....

توت: (ملتفتاً إليه) ماذا دهاك؟!. إلى أين؟

مسطاط :سأعاونها أنا..

توت: ابق مكانك..!

مسطاط: ما من قوة تمنعني..

توت: لن يمنعك غير رأيك.. رأيك أنت الذي أبديته منذ قليل.. ألست القائل لها إن معجزتها هي في قلبها؟... دعها تواجه مصيرها بنفسها... ليظهر معدن عزمها...

المنظر الثاني

)عين المنظر على شاطئ النيل.. ولكن الليل قد خيم على المكان .. يظهر في الظلام شبح شيخ البلد البدين وهو يسير بحذر ثم يلتفت إلى الخلف ويشير بيده فيظهر أربعة أشخاص يحملون صندوقا كبيرا وخلفهم رجل تبدو عليه هيئة الأمر والنهي هو "طيفون("

شيخ البلد: (في صوت خافت) هنا .. في هذا الموضع من النيل يكثر الغاب والبردى ... كما ترون...

طيفون : ألم يرنا أحد ونحن خارجون من القصر بهذا الصندوق ؟...

شيخ البلد : في مثل هذا الوقت من الليل والظلام دامس ؟!. إن هذا لمن المستحيل!

طيفون : خيراً صنعنا إذن بانتظارنا حتى يخيم الليل..

شيخ البلد: كل الخير أيها الملك..

طيفون: لست بالملك بعد .. لا تكن عجولا ، إن الأمور يجب أن تسير خطوة خطوة.. قبل كل شيء يجب التخلص من هذا الصندوق.

شيخ البلد: هنا دغل الغاب والبردى سيخفيه عن الأنظار إلى أن يجرفه التيار.

طيفون :افعلوا..

شيخ البلد: (مشيرا إلى الرجال) تقدموا بحملكم وألقوا به هنا.. بهدوء .. بغير أن تحدثوا صوتا...

)الرجال يقومون بإلقاء الصندوق حيث أشار شيخ البلد(.....

طيفون : نعم بهدوء ... هكذا تتم دائماً الأمور الناجحة لأن الهدوء مظهر من مظاهر الأمر الطبيعي .. ونحن نريد أن يسير كل شيء سيرا طبيعيا...

شيخ البلد : ما من شك أن الأمر طبيعي .. أليس من الطبيعي لرجل مشغول بصنع ساقية أن يكون على حافة النيل؟... فإذا دهمه الظلام أليس من الطبيعي أن تزل قدمه؟.. وإذا زلت قدمه أليس من الطبيعي أن يجرفه التيار؟ وإذا جرفه التيار أليس من الطبيعي أن يختفي عن الوجود؟...

طيفون: نعم هذا ما ينبغي أن ينشر ويذاع في البلد منذ الغد...

شيخ البلد: منذ الليلة...

طيفون: إن له أنصاراً . لا تنس ذلك...!

شيخ البلد : من عامة الناس ... نعم... وهم مشتتون هنا وهناك... ولكن أنصارنا نحن أشد تنظيماً.. وهم من الرؤساء...

طيفون: أشياخ البلاد . أأنت واثق منهم جميعا؟...

شيخ البلد: جميعا .. ثقتي بنفسي... أو لم تتركهم يثرون ؟... إنهم يذكرون لك ذلك: كلهم يدين لك

بالولاء...

طيفون: كل شيء على ما يرام إذن...

شيخ البلد: إن براعتك أيها الملك قد حسبت لكل شيء حسابا .. فلتطمئن كل الاطمئنان...

طيفون: ومع ذلك... عندما يعلن الخبر فهناك من سيرتاب في الأمر كل الارتياب...

شيخ البلد: من تعني؟..

طيفون: زوجته على الأقل...!

شيخ البلد :إيزيس...!

طيفون: طرقت أبوابي فجر اليوم تسأل عن زوجها... ولمحت في عينيها معاني غريبة.. لم تعجبني...

شيخ البلد: إنه امرأة .. ماذا تستطيع امرأة ؟...

طيفون :إنها ليست مع ذلك بالهينة. انت لا تعرفها...

شيخ البلد: إنها امرأة بمفردها.

طيفون: ولكنها صلبة كالصخرة ... ستبحث عن زوجها في كل ركن ... وستطرق كل باب .. وستسأل كل حي .. إنها ستثير لنا المتاعب...

شيخ البلد: سأسد عليها الطرق ...اتركها لي...

طيفون: تركتها لك... إن أمامي عملا جسيما. الحكمة يقظة دائمة، والحاكم يجب أن يكون كالذئب ينام بعين مفتوحة. ومن ينعس بملء جفنيه كالأطفال وكشقيقي، فإنه قد يصلح كاهنا أو عالما ولكنه لا يصلح حاكما... والآن هلم بنا .. هل انتهوا؟...

شيخ البلد: (وهو ينظر إلى موضوع البردى) نعم.. وقد فرغوا. ولم يبق للصندوق أثر ها هنا، قد حمله التيار...

طيفون: (متجها نحو النيل) إلى الأبدية يا أوزيريس!.. يا شقيقي العزيز!.. في قلبي حزن من أجلك ولكن الملك لمن يعرف كيف يناله .. فاغفر لي ...!

شيخ البلد: هلم بنا أيها الملك...!

طيفون: هلم بنا...

)ينصرفان وينصرف خلفهما الرجال الأربعة ويخلو المكان لحظة... وإذا بغلام يظهر من الجهة الأخرى متسللا في حذر وهو يشير لغلام آخر خلفه(

الغلام الأول) :هامسا) تعال... لقد مروا بهذا المكان .. إني واثق.

الغلام الثاني: تقول إنهم كانوا يحملون صندوقا..

الغلام الأول: نعم.. نعم .. صندوق كبير جميل... براق كأنه من الذهب.

الغلام الثاني: ترى ماذا يوجد في هذا الصندوق؟...

الغلام الأول: لا أدري.. لا بد أن يكون فيه أشياء جميلة..

الغلام الثاني: ومن هم هؤلاء الأشخاص؟..

الغلام الأول: لا أعرف. خيل إلي مع ذلك أني لمحت معهم رجلا بدينا مثل شيخ البلد.

الغلام الثاني: إنهم ليسوا إذن بلصوص يحملون مسروقا.. ما دمت تقول إن شيخ البلد معهم..

الغلام الأول: لا أدري من هم..

الغلام الثاني: ولكن.. لماذا يأتون بصندوق إلى هذا المكان المنعزل؟..

الغلام الأول: لقد رأيتهم من بعيد يقفون هنا لحظة.. ولم أجرؤ على الاقتراب منهم ..

الغلام الثاني: ربما جاءوا يخفون الصندوق هنا... تعال نبحث ..

الغلام الأول: إني خائف.

الغلام الثاني: ممن تخاف؟؟ أيها الجبان..!

الغلام الأول : لست جباناً.. ولكن..

الغلام الثاني: لا ترتعد هكذا... المكان كما ترى.. وما من أحد هنا غيرنا...

الغلام الأول: هب أننا وجدنا الصندوق؟ ماذا نفعل؟..

الغلام الثاني: يا لك من أحمق! صندوق جميل كما تقول فيه أشياء جميلة.. ألا نفتحه لنرى ما فيه؟..

الغلام الأول: لنرى ما فيه فقط لا لنسرق..

الغلام الثاني: طبعا. ومن قال إننا سنسرق ما بداخله ؟

الغلام الأول :فلنبحث عنه إذن ولنسرع..!

الغلام الثاني: نعم.. فلنسرع!.. .إنه لا شك في هذا الدغل من الغاب...

الغلام الأول: (صائحاً وهو يشير إلى مجرى النيل) انظر .. انظر...!

الغلام الثاني: (يلتفت) ماذا ؟..

الغلام الأول: (مشيرا باصبعه (هناك؟.. في المجرى.. شيء يبرق ..

الغلام الثاني: (ناظرا) نعم .. نعم .. شيء يبرق وسط التيار.. يظهر ويختفي...

الغلام الأول: إنه الصندوق..

الغلام الثاني :أأنت واثق؟..

الغلام الأول: هو هو الصندوق ... هو بعينه...

الغلام الثاني) :ناظرا) إنه يبتعد. التيار يحمله بعيدا.. لن نستطيع اللحاق به. حتى ولو سبحنا خلفه... بكل قوانا...

الغلام الأول: ولماذا لا نجرب..

الغلام الثاني: لا تكن مجنونا...

الغلام الأول: (وهو يخلع ملابسه) سأسبح خلفه...!

الغلام الثاني: لا تتقدم.. إنها مجازفة..!

الغلام الأول: (وهو يتأهب للسباحة) قلت لك إني لست جبانا... سأجازف .. إلى اللقاء...!

)يلقي بنفسه في الماء(

الغلام الثاني) :صائحا) أيها المجنون!.. في هذا الليل والتيار جارف! تجازف بحياتك من أجل شيء مغلق يبرق لا تعرف ما فيه...

المنظر الثالث

)قرية مصرية.. بيوت صغيرة تلفظ أبوابها في شبه جرن أو ساحة في وسطها شجرة جميزة ضخمة.. شيخ البلد يظهر بعصاه الطويلة ويقف تحت الشجرة وهو ينادي: "يا أهل القرية "يقبل عليه الرجال والنسوة والغلمان، تفتح أبواب الدور ويخرج منها من بداخلها(....

شيخ البلد: (يدق على الأرض بعصاه ويكرر النداء) يا أهل القرية... جئتكم بالأمس أعلن إليكم الخبر السعيد.. خبر اعتلا الملك الجديد العرش ..ملكنا المحبوب طيفون.. لقد بشرتكم وأبشركم مرة أخرى الآن بعهد رخاء وأمان. لقد كنتم في عهد الملك الراحل تشكون مما كان يؤخذ منكم في الأسواق. اليوم لن يؤخذ منكم إلا نصف ما كنتم تعطون.. لتوقنوا أن العهد قد تغير وأن طيفون ساهر على راحتكم مدبر لأموالكم. قولوا معي: النصر لطيفون...!

أهل القرية: (صائحين) النصر لطيفون..!

شيخ البلد: الآن جئت إليكم أخبركم وأحذركم : تجوب القرى اليوم امرأة مجنونة ساحرة، تزعم أنها تبحث عن زوجها، فلا تصغوا إليها! سدوا آذانكم عن مزاعمها وأغلقوا أبوابكم في وجهها فإنها حيث حلت تجر في أذيالها الشؤم والنحس. قولوا معي :الطرد للمجنونة!

أهل القرية: الطرد للمجنونة..!

شيخ البلد: البعد عن المشئومة..!

أهل القرية: البعد عن المشئومة..!

شيخ البلد: قد بلغتكم وحذرتكم وأتركِكم في سلام يا أهل القرية الآمنة...

)شيخ البلد ينصرف ويترك أهل القرية في مكانهم ذاهلين لحظة. ثم يأخذ بعضهم في الانصراف إلى شأنه، ويبقى البعض يتحادث فيما سمع(........

قروي: (لآخر) ما كنا نرى من قبل شيخ البلد يعنى بالتحدث إلينا؟..

القروي الآخر: وما كان يأتي إلينا أحد يبشرنا بالرخاء المنتظر..

القروي الأول: لا ريب أنه عهد سعيد كما قال...

القروي الثاني :أسمعته وهو يقول إنه سيخفف عنا بعض ما كنا ندفع؟..

القروي الأول: نعم.. كنا في عهد ملك ذاهل أما الآن...

القروي الثاني: قد تغير كل شي. وأصبح لنا، كما قال شيخ البلد، ملك ساهر على راحتنا وأموالنا.

قروية: (تقترب) من هذه المرأة التي قال إنها تجلب معها الشؤم والنحس؟..

القروي الأول: لا ندري.. لعلها امرأة ساحرة ممن يحدث سحرها الشر، ولا شك أنه لديه علما بخبرها.. لعلها حلت بقرية أخرى فوقعت فيها مصيبة...

القروية: فليبعدها الإله عن قريتنا.. إني أوجس خيفه.. ابني خرج في الليل مع صديق له ولم يعودا حتى الآن...

القروي الثاني: أي ابن من أبنائك؟؟؟

القروية: الأكبر.. الغلام اليافع...

القروي الثاني: ربما يعمل في الحقل.. نحن الآن في موسم الري بالليل كما تعلمين..

القروية: صدقت.. ربما ذهب لمعاونة صديقه في عمل عاجل في حقل من الحقول.. إنه أحيانا يفعل ذلك..

القروي الثاني: ما دام يفعل ذلك أحيانا ففيم الخوف؟..

القروي الأول: (ينظر ناحية الشجرة ويهمس) انظر إلى شجرة الجميز!.. من المرأة التي جاءت تجلس تحتها..

)ينظران فيجدان امرأة قد جاءت وجلست تحتها هي إيزيس وهي تخفي وجهها بنقابها الأسود(

القروي الثاني: يبدو أنها امرأة غريبة عن القرية..

القروية: (في قلق) غريبة..!

القروي الأول: فلنسألها..

القروية: نعم فلنسألها من هي؟ ..ولماذا جاءت؟ وعمن تبحث؟.

القروي الثاني: اذهبي إليها أنت واسأليها

القروية) :تتقدم إلى إيزيس) يا خالة.. أغريبة أنت عن القرية؟

إيزيس: نعم.

القروية :أتريدين أحداً هنا؟..

إيزيس: أريد أن أستريح قليلا..

القروية: حقا انت متعبة فيما أرى. أجئت من مكان بعيد؟.

إيزيس: نعم.. لقط طفت بقرى كثيرة على قدمي حتى كاد يقطر منهما الدم...

القروية: تجوبين القرى؟ تبحثين عمن؟ .. تبحثين عن زوجك؟..

إيزيس: (بدهشة) كيف عرفت؟..

القروية: (صائحة) هي.. إنها هي ..الساحرة المجنونة...

إيزيس: الساحرة المجنونة؟...

القروية: المجنونة المشؤومة التي حدثنا عنها شيخ البلد.. اخرجي من هذه القرية. أيتها المرأة..!

إيزيس: شيخ البلد.. سبقني إلى هذه القرية أيضاً؟!

القروية: إنها هي.. هي.. فلنطردها قبل أن.. قبل أن..

إيزيس: مهلا يا أخت.. لا تغضبي.. إني سأترك القرية عما قليل.. إني لم أرتكب شرا. ولن تجدي مني إلا كل خير.. اجلسي بجانبي، ولا تخشي من أمري شيئا.!

القروية: (ناظرة إلى القرويين) كيف أجلس بجانبها؟!

القروي الأول: ما دامت لم ترتكب بعد شراً. فلا تخافي! أي ضير في أن نسمع ما تقول..؟

القروية :وتحذير شيخ البلد؟.!

القروي الأول: ربما كانت هذه امرأة أخرى غير المقصودة؟..

القروية: بل إنها هي.. هي التي تبحث عن زوجها. إنها هي التي تحمل الشقاء إلى كل القرى.

إيزيس: ما أبرعهم!. سرعان ما نشروا عني الأقاويل!. أتعرفين من أنا أيتها الأخت الطيبة؟..

القروية: لا...

إيزيس: (تخلع نقابها) أنا إيزيس.

القروية: إيزيس.. زوجة...

القرويان: (معا) زوجة الملك الذاهل...

إيزيس: (في ألم) الذاهل؟.. أهكذا تسمونه الآن أنتم أيضاً؟!. في كل مكان أذهب إليه أسمع مثل هذا الكلام...

القروي: جئت إذن تبحين عنه؟.!

القروي الثاني: أتظنين أنه مدفون هنا؟!. لماذا تجهدين نفسك في البحث هنا وهناك؟... مكانك في قصرك.. والملك طيفون المحبوب لا شك سيشملك بعطفه في هذا العهد السعيد.!!

إيزيس: العهد السعيد.!!

القروي الأول: بالطبع.. إذا كان الملك الجديد سيسهر على راحتنا نحن الفلاحين، فما من ريب أن أرملة أخيه ستكون أول من يظفر برعايته.

إيزيس: قالوا لكم إن طيفون سيسهر على راحتكم؟!

القروي الثاني: وهل في هذا شك؟!!

إيزيس: وملككم أوزيريس نسيتموه؟.!

القروي الأول: إنه كان مشغولا بنفسه..!

إيزيس: بنفسه!؟ واأسفاه.. نعم نعم.. صدقتم سريعا هذه الدعايات..

القروي الأول: صدقنا ماذا؟!

إيزيس: معذورون أنتم!.. إنهم بارعون مهرة..!

القروي الثاني: لم أفهم لماذا تجوبين القرى أيتها السيدة الكريمة ..لماذا لا تقرين في بيتك؟.. ما جدوى طوافك هذا؟.!

إيزيس: لن يقر لي قرار حتى أعثر على زوجي..

القروي الأول: أهو لم يمت كما قيل؟.!

إيزيس: إنه حي

القروية :حي؟..

إيزيس: في مكان ما، ولو وجدت منكم معاونة لاكتشفت مكانه...

القروية :ماذا تريدين منا؟...

إيزيس : إجابة بسيطة: أن يخبرني كل فرد منكم عما إذا كان قد شاهد شيئاً غريبا أو مريبا مر به.

القروي الأول: أما أنا فلم أرد شيئاً...

القروي الثاني: ولا أنا..

القروية: ولا أنا الأخرى.

إيزيس: أنتم لستم كل القرية.. يجب أن أسأل كل فرد في كل بيت من بيوتكم.

القروية: حذار أن تطرقي هذه الأبواب...

إيزيس: أعلم أن أكثر الأبواب مسدودة في وجهي.. ولكني أريد أن أعتمد عليكم.. لأني أرى الطيبة في وجوهكم.!

القروي الأول: لسنا نضمن الآخرين...

إيزيس: أعلم.. ولكن فلنحاول...

القروية: سأطرق باب صديقة لي...

)تتجه إلى أحد الأبواب وتطرقه، ثم تعاود طرقه طويلا وأخيرا يفتح الباب ويظهر منه رأس غلام(.........

الغلام: (مضطربا) من؟! أنت يا خالة..!

القروية: عجبا!! أنت هنا في دارك؟ كنت أحسبك مع ابني في حقل من الحقول ..أين ابني إذن...

الغلام: ابنك؟..

القروية: (صائحة) ابني؟! أين ابني؟..

الغلام: ابنك..ابنك...

القروية: ابني؟ أين ابني.. ألم يكن معك؟..

الغلام: نعم.. يجب أن أقول لك كل شي.. لم يعد في إمكاني أن أخفي عنك...إنه.. لقد خرجنا معاً في الليل ليعاونني في الري.. ولكنه قال لي إنه شاهد صندوقا كبيرا يبرق في النيل، فنزل يسبح خلفه.. وكان التيار..

القروية: (في صرخة تفجع) ابني غرق في النيل؟..

الغلام: أقسم أني حاولت منعه من اللحاق بالصندوق ..ولكنه لم يستمع لنصحي...

القروية: (صائحة) ابني.. ابني.. ابني غرق... مات ..مات...

)جميع الأبواب تفتح وتظهر نسوة يملأن الساحة(

نسوة: ما خطبك؟!. ماذا جرى؟.!

القروية: (مولولة) ابني.. مات.. مات...

النسوة: متى؟ ..متى حدث ذلك؟...

القروية: (صائحة) يا لليوم الشؤم!.. يا لليوم النحس.. الشؤم ..النحس.. ابني.. ابني.. غلامي.. أكبر أبنائي!.. عماد داري.. قوام بيتي..

امرأة) :من بين النسوة تلمح إيزيس تحت الشجرة) مَن هذه المرأة الغريبة؟..

القروية) :تنظر إلى إيزيس) إنها هي.. حل النحس.. بحلولها.. صدق شيخ البلد..إنها هي.. هي المشؤومة.. جرت على قريتنا النحس...

النساء: (صائحات) اطردوها ..!اطردوها...

المنظر الرابع

)شاطئ النيل. الغلام يقود إيزيس(...

الغلام: (مشيرا بيده إلى المجرى وهو يمسح دمعه) هنا... هنا غرق صديقي...

إيزيس: لا تبك.. لقد قمت بالواجب عليك...

الغلام: أقسم لك أني نصحته أن لا يجازف بحياته..

إيزيس :والصندوق؟.. أكان حقا كبيرا؟..

الغلام: نعم...

إيزيس: وطوله؟.. أكان حقا كما وصفت؟...

الغلام: نعم .. . نعم...

إيزيس: أكان في طول رجل؟...

الغلام: كان في طول رجل مديد...

إيزيس: وكان يحمله رجال أربعة.. معهم شيخ البلد...

الغلام: نعم... هكذا قال لي صديقي... ولكني لم أرهم بعيني...

إيزيس :ما دام صديقك قد رآهم، فهو لا شك صادق..

الغلام: ولكنه لم يقل إنه رآهم وهم يخفون الصندوق.

إيزيس: ولكنكما رأيتماه ملقى في مجرى النيل...

الغلام: نعم ...كنا نحسبه مخبوءا. وكنا موشكين أن نبحث عنه في دغل البردى... وفجأة أبصرناه والتيار يجرفه بعيداً...

إيزيس: إلى أي جهة؟...

الغلام: (مشيراً بيده) .. إلى الشمال...

إيزيس : الشمال؟...

الغلام : لا ريب أنه ذهب الآن إلى مكان بعيد .فالتيار سريع الجريان في هذا الوقت من العام...

إيزيس: واحسرتاه...

الغلام) :ناظرا إليها) ألم تبصري هذا الصندوق من قبل؟...

إيزيس: لا...

الغلام :وتهتمين بأمره هذا الاهتمام؟... كيف لو رأيتيه إذن كما رأيناه.. لقد كان جميلا باهراً للبصر...

إيزيس: (بقوة وهي شاردة) من هو؟...

الغلام :الصندوق...

إيزيس: (تتنهد) لو علمت ما بداخله أيها الغلام...

الغلام :أوتعلمين أنت؟.. هذا ما كنا نريد نحن أن نعلم.. ما كنا نريد أن نسرق ما فيه.. أقسم لك.. ولكنا كنا نريد أن نرى ما بداخله من أشياء رائعة.. إن مثل هذا الصندوق لا بد أنه يحوي أشياء رائعة.. أليس كذلك؟...

إيزيس: وأية روعة..

الغلام: إنك تعلمين ما فيه إذن.. إنك ساحرة كما يقولون عنك..

إيزيس: لست ساحرة...

الغلام: لا تغضبي.. إني أصدقك. وأطمئن إليك.. لقد طردوك من القرية بسببي.. إنك لم تأت بالنحس إن النحس هبط القرية في الليل ساعة أن غرق صديقي.. وأنت لم تهبطي القرية إلا في الصباح.. أنا وحدي الذي أعرف أنهم ظلموك..

إيزيس: ما أطيبك أيها الغلام..

الغلام: في نظرتك حزن.. لماذا؟

إيزيس: لأني فقدت شيئاً عزيزاً...

الغلام: ماذا فقدت؟.. لعله هذا الصندوق الذي اهتممت بأمره منذ سمعتني أذكره في القرية؟.. أهو مسروق منك؟..

إيزيس: مسروق مني؟ ماذا أقول لك؟.. إنك تلقي الكلام ببساطة وبراءة.. ومع ذلك..

الغلام: إنك تعلمين ما بداخله.. إني الآن على يقين.. هي جواهر .. جواهرك.. أليس كذلك؟ خطفوها منك.. إن شيخ البلد اعتاد أن يخطف من الناس..

إيزيس: (مطرقة تمسح دمعة) حقا خطفوه مني...!

الغلام: هو جوهر إذن.. ذلك الذي في الصندوق..!

إيزيس: وأي جوهر..!

الغلام: (ببراءه) صفيه لي!

إيزيس: هو جوهر يضيء للناس.. ويكتشف لهم ما ينفعهم.. واأسفاه..

الغلام) :بسذاجة) يضيء؟.. نعم حقيقة.. إنه كان يضيء ويبرق وسط التيار.. وقد بهر صديقي . فألقى بنفسه خلفه ومات من أجل هذا الشيء دون أن يعلم ما فيه...

إيزيس: (وقد سالت من عينها دمعة) لقد مات من أجل شي عظيم دون أن يعلم...

الغلام :أتبكين؟..

إيزيس: (تمسح عينيها بقوة) لا.. لا ينبغي أن أبكي.. صاحبك لم يبك وهو يلقي بنفسه في اليم خلفه؟..

الغلام: لا.. بل كان يبتسم...

إيزيس: أرأيت؟ ..هذا درس لنا.. يجب أن ننهض نحن أيضا ونلقي بأنفسنا خلفه.. في الجهاد.. دون أن نبكي.. الجهاد من أجل البحث عنه..

الغلام: ولكنه ذهب بعيداً.. عن الصندوق قد ذهب بعيداً.. حمله التيار إلى الشمال...

إيزيس: سنسير إلى الشمال.. على أقدامنا الدامية.. إلى الشمال...

الغلام: سوف نسير طويلا...

إيزيس: سأسير الحياة كلها إذا لزم الأمر... سأسير وحدي.. اذهب أنت إلى قريتك.. لا شأن لك بكل هذا.. سأسير ..وسأصمد أمام كل عقبة حتى أعثر عليه...

الغلام: تسيرين وحدك؟.. ألا تخافين الليل.. وعواء الذئاب من حولك؟.. وصرخات ابن آوى..
إيزيس: لن أخاف.. اذهب أنت إلى اهلك أيها الغلام الطيب.. إني لك شاكرة.. لن أنسى وقوفك إلى جانبي وخروجك معي ..والقرية ترجمني بالحجارة..!
الغلام: لولا خشيتي أن تقلق أمي لسرت معك حتى الغد .ولكني.. أتمنى لك حظا حسنا وليكن الإله لك معينا...

)ينصرف الغلام وتحاول إيزيس أن تسير بقوة وعزم، ولكنها تلتفت إلى النيل في الموضع الذي ظهر فيه الصندوق ..وتتخاذل وتنهار وتقع على ركبتها مادة يدها نحو ذلك الموضع من النهر صائحة باكية مولولة نائحة(......

إيزيس: (نائحة) أوزيريس.. أين أنت يا أوزيريس أين أنت؟ ..أين أنت؟..

كان لك بيت
كان لك ملك
كان لك حب
في كل قلب
عد إلى بيتك يا أوزيريس
عد إلى ملكك أيها العزيز
عد إلى زوجك أيها الحبيب
عد إلى التي تحبك إيزيس
عد ... عد ... عد

)ترتمي على وجهها باكية في غير شهيق.. وتمكث بلا حراك لحظة كأنها في إغماء.. وإذا صوت غناء ملاح يشد حبل مركب يقترب منها فتنهض في الحال(

إيزيس: (تنادي بقوة وعزيمة) أيها الملاح..!
الملاح: (يقف) من يناديني؟..
إيزيس: من أين أنت قادم؟..
الملاح :من الشمال.. كما ترين..
إيزيس: (كالمخاطبة لنفسها) نعم.. من الشمال؟..

الملاح: نسير كما ترين عكس التيار.. ولا ريح تدفع في شراعنا.. فبدلا من أن يجرنا المركب بالشراع نجره نحن بالحبال...

إيزيس: ومن أي جهات الشمال جئتم؟...

الملاح: من قرب البحر الكبير...

إيزيس: نعم.. نعم، أخبرني أيها الملاح.. أما صادفتم شيئاً غريبا في النيل وأنتم سائرون؟

الملاح: شيئاً غريبا؟!.. نحن لا نصادف غير الريح.. تارة في ظهورنا. وتارة في وجوهنا.. ثم تختفي فلا نجدها هنا ولا هناك...

إيزيس: في النيل.. أما وقع بصركم على شيء؟

الملاح :علام تريدين أن يقع بصرنا في النيل.. إن الأسماك لا تخرج رؤوسها من الماء.. ولا ألسنتها..

إيزيس: لا أقصد الأسماك..

الملاح: ماذا تقصدين إذن ..أفصحي.!

إيزيس: ألم تلمحوا شيئاً يبرق في التيار؟

الملاح: يبرق؟...

إيزيس :شيئاً يبهر البصر؟..

الملاح: رأينا قرب البحر الكبير البرق في السماء.. وكلن البرق الذي في الماء لم نره بعده...

إيزيس: لا أقصد هذا البرق..

الملاح: إنك تقصدين أن تعوقينا عن سيرنا.. لقد آمنت أن الملاحة لا يعطلها غير شيئين: سكوت الهواء وانطلاق لسان المرأة...

إيزيس: (متوسلة) انتظر أيها الملاح!.. كلمة واحدة ..!

الملاح: تكلمي وأسرعي...

إيزيس: ألم تصادفوا.. شيئاً يسبح؟..

الملاح: نحن لا نصادف إلا أشياء تسبح.. أو تظنين أننا المركب الوحيد الذي يسبح في النيل..!

إيزيس: لست أعني المراكب. أعني شيئاً آخر يسبح.. صندوقا مثلا..

الملاح: صندوقاً؟.

إيزيس: نعم.. ألم تروا صندوقا سابحا في التيار؟..

الملاح: صندوقا كبيرا؟.!

إيزيس: (بلهفة) نعم..

الملاح: لم أره بعيني..

إيزيس: سمعت ؟

الملاح: كلاماً مما يقال بين الملاحين للسمر.. بعد العشاء..

إيزيس: ماذا قالوا.. أسرع.. أتوسل إليك...!

الملاح: قابلنا مركباً متجهاً نحو الشمال كان ملاحوه يتحدثون عن صندوق كبير وجدوه عائماً.. كاد يصدمهم فأخرجوه..

إيزيس: ماذا صنعوا به؟..

الملاح: لا أدري.. لعلهم وضعوه في مركبهم..

إيزيس: وأين هذا المركب؟..

الملاح: رحل..

إيزيس: إلى أين رحل؟ ..إلى أين؟..

الملاح: خرج هذا المركب إلى البحر ميمما شطر ببلوس..

إيزيس :ببلوس؟!

الملاح: نعم.. مملكة ببلوس.. ألا تعرفين أين تقع مملكة ببلوس؟!

إيزيس: (كالمخاطبة لنفسها) نعم.. ببلوس!

الملاح: والآن.. هل لديك سؤال آخر؟.!

إيزيس: (كالشاردة) لا.. شكرا لك..!

الملاح: ها هي ذي نسمة ريح تهب..إذا سكتت المرأة نطقت الريح.. فلنغتنم هذه النسمة.. تركتك بخير أيتها المرأة.!

)ينصرف جاذبا حباله وهو يغني أغنية(

إيزيس: (صائحة في أمل وعزم) ببلوس.. أوزيريس...!

الفصل الثاني

المنظر الأول

)تحت أسوار قصر ببلوس – حارسان يقفان بالباب(......

الحارس الأول: إذا جاءت هذه المرأة مرة أخرى تريد الدخول فإني سأطعنها برمحي..

الحارس الثاني: يبدو عليها أنها ليست من أهل هذه البلاد.

الحارس الأول: نعم.. ولهذا تلح في لقاء ملكنا لتسأله الصدقة...

الحارس الثاني: كيف علمت؟.. أقالت ذلك؟..

الحارس الأول: لم تقل .ولكن هذا معروف بالبداهة.. هل يطلب مثلها من الغرباء مقابلة الملك إلا ليسألوه مالا...

الحارس الثاني: إن ملكنا كريم مع الغرباء.

الحارس الأول: ليس كل الغرباء يستحقون عطفه...

الحارس الثاني: من يدريك!؟ قد يعطف على كل غريب من أجل ذلك الغريب الذي نحبه جميعا..

الحارس الأول: هذا صحيح. ولكنه يضيق أيضاً بالغرباء واللصوص الأنذال.. لا تنس أولئك الملاحين الجشعين وما حدث منهم؟.!

الحارس الثاني: ولكن هذه المرأة..

الحارس الأول: لست أعني هذه المرأة بالذات. نحن لا نعرف من هي ولا ما تريد... إنما نحن نحرس هذه الأسوار والأبواب من اللصوص والمتطفلين وعملنا هو أن نرتان في كل شخص غريب...

الحارس الثاني: إذا جاءت مرة أخرى فإني سأسألها عما تريد من الملك..

الحارس الأول: لن تجيب بوضوح..

الحارس الثاني: لأنك لم تعرف كيف تسألها بلطف...

الحارس الأول :اسألها أنت هذه المرة... أما أنا فسألزم الصمت...

الحارس الثاني: قد لا تأتي وتريحنا من أمرها..

الحارس الأول: ستأتي.. إنها كما رأينا تدور حول هذا القصر منذ الفجر.. وأغلب ظني أنها قضت الليل تحت هذه الأسوار.. والآن وقد طلع الصباح، ما من ريب في أنها ستعاود الكرة وتأتي لتسألنا الدخول...

الحارس الثاني: (وهو يلتفت) صدقت... ها هي ذي امرأة تقترب...

الحارس الأول: (ملتفتا) إنها هي ..بعينها...

الحارس الثاني: دعني إذن أحادثها...

الحارس الأول: افعل ما شئت...

الحارس الثاني: (صائحا) ماذا تريدين أيتها السيدة..

)تظهر إيزيس(

إيزيس: قلت لكم أريد مقابلة ملككم.. أريد مقابلة ملك ببلوس...

الحارس الثاني: أنت لست من أهل هذه البلاد؟...

إيزيس: لا...

الحارس الثاني: من أي البلاد أنت؟..

إيزيس: من بلاد بعيدة.. في الغرب..

الحارس الثاني: أنت من الغرب؟!

إيزيس: نعم.. لماذا هذه الدهشة؟..

الحارس الثاني: عندنا رجل من الغرب.. يحبه أهل بلادنا كثيرا..

إيزيس: (باهتمام) لماذا يحبونه؟..

الحارس الثاني: لأنه صنع أشياء عجيبة ما كان يعرفها أهل بلادنا..

إيزيس: (باهتمام (حدثني عن هذا الرجل...

الحارس الثاني: صنع آلات أحدثت عجبا.. لم يعد الناس هنا ينتظرون المطر ليسقوا أرضهم.. لقد اكتشف لنا الينابيع وركب عليها آلات تسمى الشودايف والسواقي.. وعلم الناس الحرث بما يسميه المحراث.. إنه في كل يوم يصنع جديدا وعجيبا ينفعنا ويبهرنا.

إيزيس: (هامسة دامعة العينين) هنا أيضاً؟!

الحارس الثاني: ماذا تقولين؟..

إيزيس: (كالمخاطبة لنفسها) حقا، هو كذلك حيثما حل يبعث الحياة، يغير الحياة..

الحارس الثاني: ليت كل الغرباء مثله..

إيزيس: ما من أحد مثله..

الحارس: أتعرفينه إذن؟.

إيزيس) :كالهامسة) نعم...

الحارس: بالطبع ما دمت من بلده، من الغرب مثله...

إيزيس) :هامسة) ليس هذا فقط...

الحارس: ماذا تعنين؟...

إيزيس: كيف أستطيع أن أرى هذا الرجل؟.

الحارس: وماذا تريدين منه؟..

إيزيس: أتوسل إليك.. قل لي أين أجد هذا الرجل الان؟..

الحارس: هنا في هذا القصر.. إنه يقيم هنا.. إن الملك يعزه ويكرمه، ولا يعامله معاملة العبد الرقيق... إن له هنا مكانة ومنزلة.

إيزيس: كيف أستطيع أن أراه؟..

الحارس: عجباً!! أجئت لتقابلي الملك أم لتقابليه؟..

إيزيس: بعد ما علمت أنه هنا.. أقصد ذلك الذي هو من بلدي وموطني...

الحارس: عدلت إذن عن مقابلة الملك؟...

إيزيس: نعم.. أريد أن أرى هذا الرجل...

الحارس: هذا أيسر لنا ولك..

إيزيس: كيف أراه؟..

الحارس الأول: (يقطع صمته فجأة) لن نسمح لها بدخول القصر مهما يكن من أمر..!

الحارس الثاني: ليست في حاجة إلى دخول القصر لتراه ..اسمعي أيتها السيدة.. إذا كان هذا هو كل ما تريدين فهناك طريقة مأمونة..

إيزيس :أتوسل إليك؟... ما هي الطريقة؟...

الحارس: انتظري ها هنا.. قرب الباب.. إنه عما قليل يخرج من القصر كعادته كل صباح...

إيزيس: (مضطربة ملهوفة) سيخرج الآن من هذا الباب؟..

الحارس: نعم في ذهابه إلى أعماله...

إيزيس: (مضطربة) سأراه الآن ..سأنتظر.. أنتظر، أنتظر.. (تنتحي ناحية قرب الباب منتظرة) شكرا ياسيدي .. شكراً..

الحارس الثاني: (لزميله) ها هي ذي المسألة قد حُلت .. بغير حاجة إلى أن تطعنها برمحك..!

الحارس الأول: نعم.. ولكن الأمر لم يزل غامضا.. ماذا فهمت أنت من كل هذا؟..

الحارس الثاني: ليس في الأمر غموض. أنت الذي تعقد الأمور...

الحارس الأول: امرأة جاءت تطلب الملك وتلح في الطلب.. ثم عدلت فجأة واكتفت برؤية شخص آخر..

الحارس الثاني: من بلدها...

الحارس الأول: (ملتفتا ناحية إيزيس) انظر.. انظر إليها.. إنها تذرف عبرات بلا شهيق ولا صوت..

الحارس الثاني: (ملتفتا) نعم .. لعله حنين الغربة...

الحارس الأول: كل هذا لا يكفي.. إن في هذا كله شيئاً مريبا...

الحارس الثاني: لست أدري كيف تساورك أنت وحدك مثل هذه الظنون؟!

الحارس الأول: أترى أن كل هذا الذي حدث أمامنا هو شي طبيعي؟.!

الحارس الثاني: ولم لا؟..

الحارس الأول: سنرى الآن أينا المصيب؟.!

الحارس الثاني: (ملتفتا إلى الباب) صه!.. ها هو ذا يخرج من القصر.

)يخرج من باب القصر رجل مهيب الطلعة هو أوزيريس.. ما يكاد يخطو خطوات بعيدا عن الأسوار حتى تنهض إيزيس وتجري إليه صائحة صيحة يمتزج فيها الفرح بالبكاء(....

إيزيس: أوزيريس...!

أوزيريس: (بدهشة وحنان وتأثر (إيزيس...!

إيزيس: (تلمسه بيديها غير مصدقة) هذا أنت يا أوزيريس.. هذا أنت؟!. هل أنت بخير.. هل أنت..

أوزيريس: كما ترين.. وأنت؟. أيتها الحبيبة..!

إيزيس :زوجي..

)يتعانقان(............

الحارس الأول: (لزميله) انظر!... أليس هذا غريبا...!

الحارس الثاني: (ناظرا إلى الزوجين) نعم.. حقا.. قالت له زوجي ..أسمعت..!

الحارس الأول: سمعت..

الحارس الثاني: فلنغض الطرف ولا نخجلهما..!

أوزيريس: (يقف أمامها متأملا) دعيني أولاً أملأ عيني منك.. فإني..

إيزيس: (تكفكف دموع التأثر وتبتسم له... (

أوزيريس: نعم كفكفي الدموع وابتسمي.. فقد التقينا..

إيزيس: (كالمخاطبة لنفسها ولكنها لا تصدق) حقا لقد التقينا.. أخيرا.. لقد عثرت عليك.. أخيرا..

أخيرا...

أوزيريس: بحثت عني طويلا ..ولا شك...

إيزيس: (مكتفية بهز الرأس والغمغمة) نعم..

أوزيريس: ما من يوم مر بي إلا وتصورتك كما تركتك آخر مرة.. تلك الليلة الملعونة.. وأنا أقول في نفسي: عبثا لبثت تنتظر عودتي.. إنها أيقنت أخيرا أن شراً لحقني وأني قد أكون في عداد الأموات ..وعندئذ.. يا لها من دموع تلك التي ولا ريب ذرفتها!... ويا له من حزن ذلك الذي سكن قلبها...!

إيزيس: (تنظر إليه مليا وتغمغم) نعم...

أوزيريس: ولكني لم أتصورك هنا.. لم يخطر ببالي قط أنك مستطيعة أن تأتي إلى هنا.. اجتزت إذن خلفي كل هذه البحار. قطعت كل هذه القفار.. أنت ..

إيزيس: (تطرق برأسها وتصمت..(

أوزيريس) :وهو يتأملها) إنه لجهد.. إنه لجهاد..!

إيزيس: (تطرق ولا تجيب..(

أوزيريس :إيزيس..!

إيزيس: (ترفع رأسها بقوة) حدثني عما وقع لك أنت كيف حدث لك هذا.. كيف حدث؟..

أوزيريس: ما توجست خيفة من أخي طيفون.. لأني لم أكن أظن أنه يقدم على مثل هذا الفعل..

إيزيس: أما أنا فقلبي كان يحدثني بسوء.. أخبرني عما فعل تلك الليلة..

أوزيريس: استقبلني على خير ما أحب.. وكانت وليمة كريمة وبعد الطعام قال: عندي تحفة رائعة أعرضها عليكم. وأمر فجيء بصندوق بديع النقوش فأبدى أتباعه الحاضرون إعجاباً، فقال: إني لمهديه إلى من يلائم قامته. فبادر الأتباع كل بنوبته يدخلون الصندوق فلا يلائمهم.. ونظر إلى آخر الأمر وقال: هل لك يا أخي في أن تجرب؟ ..فحملت الأمر على محمله البريء ووضعت نفسي في الصندوق ضاحكا مرحا فوجدته ملائما لقامتي، وفي تلك اللحظة ما شعرت إلا والأتباع قد هجموا على غطاء الصندوق فأغلقوه عليّ وأحكموا إغلاقه...

إيزيس: (من بين أسنانها) الخائن...!

أوزيريس: بعد ذلك لم أعلم من أمري إلا أني ألقيت بالصندوق ببين لجج تتقاذفني.. ومضى على ذلك وقت لا أستطيع تقديره.. قد يكون يوما وليلة، أو يومين وليلتين.. لست أدري على التحقيق .. فقد رحت في سبات .. ولم أفق إلا على صدمة.. ثم إذا بي أحس بالصندوق يرفع من الماء .

ويفتح غطاؤه وأرى نور النهار.. وأجد نفسي على سفينة.. وأجد حولي وجوها غريبة ..وعيونا تحملق في وجهي...

إيزيس: الملاحون...

أوزيريس: نعم.. سألوني عن شأني، فخشيت أن أبوح لهم باسمي بعد الذي حدث لي.. فقلت لهم إني عبد رجل من الأثرياء وضعني في الصندوق وألقي بي في النيل قربانا .. فصدقوني..

ولكنهم.. طفقوا يتهامسون ويتآمرون.. إنهم يريدون الصندوق النفيس، ولكنهم مختلفون فيما يصنعون بي؟ ..أيقتلونني؟.. أيلقون بي في الماء بعد تجريدي من ثيابي؟.. أدركت ما يجول في روسهم فسألتهم عن وجهتهم، فقالوا إلى الشرق، إلى مملكة ببلوس... فقلت لهم: أدلكم على طريقة تربحون بها مالا كثيرا. إنكم لن تكسبوا بقتلي غير الإثم ولا من الصندوق غير الحيرة به. ولكن اذهبوا بي وبه إلى ملك ببلوس التي تتجهون إليها وبيعوني له مع صندوقي فهو خير من يدفع لكم في ذلك المال الوفير.. فقالوا: نعم الفكرة!.. وباعوني لهذا الملك الطيب.. تلك كل قصتي..

إيزيس: (كالمخاطبة نفسها) أوزيريس .. يباع كالعبد الرقيق...

أوزيريس: ولكن هذا الملك الكريم لم يعاملني قد معاملة العبد الرقيق...

إيزيس: أيعرف من أنت؟..

أوزيريس: لا... ما من أحد هنا يعرف عني شيئا غير ما قلت للماحين وما قالوه هم للملك..

"الرجل الآتي من الغرب" هذا كل ما يعرفه الناس عني في هذه البلاد..

إيزيس: والملك بماذا يناديك؟..

أوزيريس" :الصديق المصري..!"

إيزيس: يا له حقا من كريم!.. ولكنك أنت أيضاً كريم عظيم في هذه البلاد..

أوزيريس: من أدراك؟..

إيزيس: من أدراني؟!.. شذاك في هذه الأرض كأنه شذى اللوتس في أرضنا.. منتشر عبيره في كل الأرجاء..

أوزيريس: (كالحالم في حنين) أرضنا..!

إيزيس: (في حنين هي الأخرى) نعم.. أرضنا.!

)يطرقان ويصمتان(......

الحارس الأول: (يلتفت نحو الزوجين) إنهما قد أطالا الحديث.!

الحارس الثاني: دعهما وشانهما..!

الحارس الأول: كيف أدعهما.. ألا ترى من واجبنا أن نبلغ الملك..

الحارس الثاني: بماذا؟..

الحارس الأول: قدوم هذه الزوجة..

الحارس الثاني: أترى ذلك؟..

الحارس الأول: نحن مكلفون بتبليغ ما نشاهد.. سأدخل في الحال القصر وأبلغ..

)يسارع إلى دخول القصر(

أوزيريس) :كالمستيقظ من حلم) نعم.. أرضنا الجميلة..

إيزيس: ونيلها وسقيان البردى تلعب فيه...

أوزيريس: نعم.. نيلها الذي لم يغرقني.. ما أطيبه.!

إيزيس: حقا.. حتى نيلها حملك على صدره الحنون كأنك طفله الصغير..

أوزيريس: نعم.. كنت أشعر بهزات أمواجه اللطيفة حول صندوقي كأنها يد أم تهز طفلها الرضيع..

إيزيس: ما من شيء في الوجود ينسينا هذه الأم..!

أوزيريس: (في حنين) أرضنا..!

إيزيس :نعم..

أوزيريس: (حالما) نيلنا..!

إيزيس: نعم..

أوزيريس: مهما يصبنا هناك من سوء..!

إيزيس: إن السوء لا يأتينا من أرضنا ولا من نيلنا..

أوزيريس: (بعد لحظة) لماذا فعل بي ذلك شقيقي؟.!

إيزيس: الحكم...!

أوزيريس: ألم أبذل جهدي في خدمة الشعر؟! ألم يكن الناس يحبونني؟.!

إيزيس: هذا سؤال لم يطرحه هو على نفسه...

أوزيريس: والناس؟.. ماذا يقولون في ذلك؟..

إيزيس: (تطرق صامتة)؟

أوزيريس: لماذا لا تجيبين يا إيزيس؟.. ماذا يقول الشعب الآن؟..

إيزيس: لا تطرح علي اليوم هذا السؤال يا أوزيريس.

أوزيريس: (في براءة) لماذا.. إن شعبي يحبني دائما.. أليس كذلك؟..

إيزيس: (متفادية الإجابة (يجب أن نركز تفكيرنا الآن في شيء واحد...

أوزيريس: ما هو؟...

إيزيس: العودة إلى الوطن.

)ملك ببلوس وخلفه الحارس الأول يظهران بباب القصر(.......

الملك: (مناديا) أيها الصديق المصري!

أوزيريس: (ملتفتا (الملك...!

الملك: قيل لنا إن زوجتك قد أقبلت..

أوزيريس: نعم أيها الملك..

الملك: فلتنزل إذن على الرحب والسعة...

إيزيس: شكراً لك أيها الملك..!

الملك: لقد حدثنا عنك أيتها السيدة، وهو القليل الكلام عن نفسه وعن ماضيه..

إيزيس: (لزوجها) تحدثت عني؟..

أوزيريس: (هامسا) هذا ما لم أستطع كتمانة...!

إيزيس: (للملك) ماذا قال عني؟..

الملك: قال إنك كل ما يعتز به ويحرص عليه في تلك البلاد البعيدة .. لم يكن له من شئونه ما يفكر فيه غيرك أنت وما صرت إليه..

إيزيس: (كالمخاطبة لنفسها) هو ايضاً؟.!

الملك: حتى أيقنا أنه لو قدر له يوما أن يتركنا فلن يكون ذلك إلا حنينا إلى زوجته. أما وقد جئت إليه. فقد ذهب قلقه ولا ريب. واكتملت راحة نفسه. وتوطد أملنا في أن يبقى معنا دائما.

إيزيس: هناك حنين آخر أقوى من حنينه إلي.

الملك: ما هو؟..

إيزيس :حنينه إلى وطنه.

الملك: أنت كل وطنه أيتها السيدة...

إيزيس: لا.. أيها الملك...

الملك.. هذا ما فهمناه عنه..

إيزيس: إنه لم يُظهر الحقيقة المكتومة في أعماقه...

الملك: أي حقيقة؟...

إيزيس: أرضه تناديه!

الملك: (في قلق (أرضه؟.!

إيزيس: نيله يناديه؟..

الملك: (بوجوم) نيله؟.!

إيزيس: هذا ما نطمع فيه منك أيها الملك الكريم...

الملك: (متوقعا صدمة) ماذا تقصدين؟.!

إيزيس: أن تأذن لنا اليوم بالعودة إلى وطننا..

الملك: اليوم؟!

إيزيس: نعم اليوم.

الملك: (بعد لحظة إطراق) أتعرفين ماذا تطلبين إليّ أيتها السيدة؟.. أترين هذا القصر؟.. أنت تريدين مني أن أنتزع العمود الضخم الذي يقيم سقفه ويدعم أركانه..

إيزيس: العمود الضخم؟

الملك: هو زوجك أيتها السيدة...!

إيزيس :أعلم أن له عندك منزلة ومكانة..

الملك: وعند شعبي..

إيزيس: بلاده أيضاً لها عليه حق..

الملك: بلاده باعته لي..

إيزيس: نعم مع الأسف. ولكنه هو لا يجوز له أن يبيعها.

الملك: نحن نريده. أما بلاده فليست في حاجة إليه.

إيزيس: من قال إن بلاده ليست في حاجة إليه؟..

الملك: ألم يلقوا به في النيل ليغرق؟!. ألم يأت به الملاحون يساومون فيه. من هذا الثري الأحمق الذي كان يملك مثله ويفرط فيه ولو من أجل قربان؟. ثقي أيتها السيدة أني لا أستطيع أن أفرط فيه؛ وإلا كنت أشد حمقا من ذلك الثري المصري..!

إيزيس: صدقت!.. هذا من حقك.. فقد دفعت فيه مالا..

الملك: لا أيتها السيدة.. لا تذكري المال.. لقد صنع لي ولشعبي ما لا يقوم بمال.. لا تتحدثي عنه كأنه عبد رقيق.. لا أسمح بهذا أبدا.. إنه حر.. ومن خيرة الأحرار..

إيزيس: ما أكرمك..!

الملك: ثقي أيتها السيدة إني عندما قلت إني لا أفرط فيه لم أقصد أنه مملوك لي.. بل قصدت أن حياته عزيزة علينا وأنا لن نضمن سلامته في بلاده التي لفظته.. نحن أولى به. إلا أن يكون هو قد ضاق بنا أو زهد فينا أو ناله أذى في بلادنا دون علم منا..

أوزيريس: لا أيها الملك. ما هو ضيق ولا زهد ولا أذى. بل على النقيض.. ما رأيت منك ومن الناس هنا إلا الخير والعطف والحب.

الملك: ومع ذلك تترك من يحبونك إلى من لا يريدونك..

أوزيريس: على الرغم مني.

الملك: ستكون في خدمة رجل آخر في بلادك.. هذا ما ينتظرك بالضرورة...

أوزيريس: ربما.

الملك :لست أفهم.. كيف تفضل ذلك المجهول هناك .. على الأصدقاء هنا..

أوزيريس: من الصعب حقا أن تفهم ذلك أيها الملك.!

الملك: كل هذا صعب التصديق حقا. إن في الأمر لسرا.. ما أن ظهرت زوجتك اليوم حتى ظهرت هذه النوايا.. صارحاني بالحقيقة. ما هو الدافع إلى هذه الرغبة المفاجئة في ترك هذه البلاد؟..

إيزيس: أظن من الخير أن نصارحك..

أوزيريس هامسا (تصارحينه بماذا؟..

إيزيس: بكل الحقيقة. إن الملك النبيل هو خير من نصارحه بحقيقتنا ونأتمنه على سرنا.. ومن حقه أن يفهم لماذا يجب أن نعود إلى وطننا. ولكي يفهم لا بد من أن يعرف من نحن. سنبوح لك بسر أيها الملك الكريم..

الملك: وأنا له حافظ أمين.

إيزيس: زوجي هو: أوزيريس.

الملك: (مأخوذ في الدهشة) أوزيريس ... ملك بلاد مصر...

إيزيس: نعم، وأنا زوجته إيزيس.

الملك: (ماخوذا (الملكة...!

إيزيس: لم أعد ملكة ولم يعد زوجي ملكا.. فقد اغتصب أخوه طيفون الحكم..

الملك: وصل إلى علمي شيء كهذا..

إيزيس: وهو الذي وضعه في الصندوق وألقى به في الماء..

الملك: يا للقسوة.!

إيزيس: هذا هو سرنا..

الملك: حقا لقد كانت نفسي تحدثني بأن ضيفي ليس رجلا مثل بقية الرجال.. وأنه يطوي بين جنبيه سراً.. كان ضيفي إذن أوزيريس .. إنه لشرف عظيم. إنه لشرف عظيم..

أوزيريس: ما من شيء يعدل عندي في الشرف نداءك لي: "أيها الصديق المصري"!

الملك: ثق أنك دائما صديقي المصري. وسأظل أحتفظ لهذه الصداقة بأجمل الذكرى.

إيزيس: فهمت الآن أيها الملك لماذا ينبغي لنا أن نعود إلى بلادنا؟..

الملك: نعم. فهمت. من حق الملك أوزيريس أن يعود إلى بلاده لاسترجاع عرشه.

أوزيريس: ليس العرش هو الذي يدعوني...

إيزيس: حقا.. زوجي لم يفكر في ذلك.. ولكن مكاننا على كل حال هو في أرضنا..

أوزيريس: وعلى شط نيلنا..!

إيزيس: نعم.. نيلنا..

الملك: أقدر موقفكما وما أنتما فيه.. وإني رهن الإشارة ..

إيزيس: كل ما نرجو أن تأذن لنا بالرحيل.

الملك: لكما ذلك. على الرغم مني. سآمر بتجهيزكما للرحيل إلى مصر بما يليق بمقام الملوك.

أوزيريس: لا.. لا أيها الصديق الكريم.. لا.. بل نذهب كما جئنا..

إيزيس: نعم.. نذهب كما جئنا في الخفاء، دون أن يشعر بنا أحد. ألم أقل لك أيها الملك إن أمرنا يجب أن يظل سرا مستورا.. إذا أردت لنا السلامة فهذا هو السبيل.

الملك: فهمت.

إيزيس: أي ضجيج حولنا يعرضنا للخطر...

الملك: لكما ما أردتما..

أوزيريس: لن أنسى كرمك أبداً أيها الصديق..

إيزيس: لن ننسى نبلك أبداً..

الملك: أرجو أن تتذكر دائما أني خليق أن تعتمدا علي .. ابعثا إلي وقت الحاجة تجداني أهب إلى المعونة أسرع من الريح.. إذا فعلتما ذلك أيقنت أنكما لم تنسيا حقا أني لكما صديق.

إيزيس: لن ننسى..!

)إيزيس و أوزيريس يتحركان(

أوزيريس: وداعا...!

الملك: (هامسا) وداعاً..!

المنظر الثاني

)شاطئ النيل.. بيت صغير منعزل تخفيه عن الأنظار بعض سيقان الغاب الطويلة ولا يظهر منه إلا درج صغير من حجر وباب مغلق.. يظهر رجلان أحدهما مسطاط والآخر توت(

مسطاط: (مشيراً إلى البيت) ها هنا..

توت: هذا البيت المنعزل؟..

مسطاط: بيتهما.

توت: حقا إنه لموضع خفي، ليس من اليسير العثور عليه. أهما مختفيان هنا منذ زمن طويل؟..

مسطاط: منذ ثلاثة أعوام..

)يسمع بكاء طفل داخل البيت(...

توت: ما هذا ؟...

مسطاط: طفلهما. لقد أنجبا طفلا.. أسمياه حوريس...

توت: لو علم طيفون بكل هذا؟.!

مسطاط: ومن أين لطيفون أن يعلم؟

توت: وكيف علمت أنت؟...

مسطاط: المصادفة.. وإن شئت الدقة فقل الحركة أو الاجتهاد أو النشاط.. فأنا لا أحب الجلوس راكداً بجوار البردى..

توت: كما أفعل أنا؟.!

مسطاط: (مستمراً) ولا أقنع بالنفخ في مزامير القصب..

توت: كما يفعل إخواننا...

مسطاط: أحب أن أخوض الحياة وأرى الناس.. لقد قادتني قدمي إلى موضع في الصحراء هناك في الشط الآخر.. رأيت قناة هناك قد شقت وحول إليها ماء النيل وأهل هذه المنطقة، الجرداء بالأمس، يعيشون اليوم في الخصب ويتحدثون عن الرجل الأخضر..

توت: الرجل الأخضر؟.. من هذا؟..

مسطاط: (يشير إلى البيت الصغير (صاحب هذا البيت...

توت: (هامساً) أوزيريس...!

مسطاط: (يضع اصبعه على فمه (صه!.. ما من أحد هنا يعرف الاسم..!

توت: يسمونه الرجل الأخضر؟..

مسطاط: لأنه حول صحراءهم إلى خصب.. رأيته بعيني وهو يعمل معهم ويعلمهم.. ثم تبعته إلى بيته هذا.. ثم رأيتها هي..

توت: (همسا) إيزيس..!

مسطاط: نعم.. وما إن أبصرتني حتى أجفلت وذعرت ثم اطمأنت إلي.. ثم قبلت أخيراً أن أحضرك إلى هنا..

توت: أكانت مترددة في ذلك؟..

مسطاط: كل التردد.. كبرياؤها.. قالت إنها قد تعلمت أن تكافح بنفسها وألا تستجدي أحداً..

توت: يا لها من امرأة..!

مسطاط: نعم.. إنها لم تنس موقفنا الماضي منها..

توت: إن شئت الدقة فقل موقفي أنا..

مسطاط: قلت لها أخيراً: نحن الذين نستجديك أن تشركينا في كفاحك..

توت: أحسنت القول..

مسطاط :والآن هل أطرق بابها؟ أو لديك بعد ما تسأل عنه؟

توت: اطرق بابها..

)مسطاط يطرق باب البيت وينتظر لحظة وعندئذ يفتح الباب بحذر وتطل منه إيزيس ثم تخرج مطمئنة(....

إيزيس: (باسمة) هذا أنت؟.!

مسطاط: كما وعدت.. ومعي توت...

توت: (يتقدم) نعم.. ها أنذا...

إيزيس: مرحبا بكما.. كنت أود أن أستقبلكما داخل هذا البيت الصغير.. لكن طفلي مريض، لسعته عقرب، وقد غمضت عينه منذ لحظة، وأخشى أن يزعجه حديثنا.. فلنبق هنا..

توت: طفلك لسعته عقرب؟!

إيزيس :منذ أيام، وكنت معه وحدي، فقد كان زوجي قد ذهب إلى الشاطئ الآخر..

توت: وماذا فعلت؟..

إيزيس: قد علمني زوجي فيما علمني ما ينبغي أن أفعل إذا وقع هذا الأمر ..أسرعت إلى سكين وشرحت مكان اللسعة قليلاً، ثم جعلت أمص السم من الجرح وأبصقه بعيدا..

توت: لعل الخطر قد زال عن طفلك؟..

إيزيس: طفلي في طريق الشفاء الآن ..ولا خوف عليه ..

مسطاط: والآن.. فلنتحدث فيما جئنا من أجله.. نحن في خدمتك..

إيزيس: شكرا لكما.. ولكني كما تريان أعيش مع زوجي وطفلنا هذه الحياة الهادئة.

مسطاط: إن هذه الحياة الهادئة لم تكتب لمثلكم.. إن عرشكم يجلس عليه طيفون.. وكلنا يعرف بأي الطرق وصل إليه؟.

إيزيس: كلنا يعرف؟ من تعني بقولك كلنا؟.. هل كل الناس يعرفون؟..

مسطاط: يجب أن نعمل ليعرف كل الناس... والوقت مناسب. فقد ساء حكم طيفون حتى عم الفساد كل شيء والأمة تنحدر إلى هاوية..

إيزيس :في عرفك أنت. وربما قلة غيرك. ولكنكم لستم كل الناس..

مسطاط: تكفي هذه القلة لنبدا بها العمل..

إيزيس: أي عمل.. عودتنا إلى الحكم؟.. مستحيل .. زوجي لا يريد..

مسطاط: توت يستطيع أن يقنعه..

إيزيس: ما من أحد يستطيع إقناعه.. لقد حاولت أنا طيلة أعوام ثلاثة أن أدفعه إلى هذا الهدف.. ولكنني أخفقت .. حتى وجود طفله لم يحمله على تغيير رأيه.. لقد صدم المسكين..

مسطاط: صدم؟..

إيزيس :نعم.. صدم في أعماق قلبه يوم سمع بأذنيه الناس يلعنون ذكرى أوزيريس...

مسطاط :إنها دعايات طيفون..

إيزيس: قلت له ذلك.. فازداد تمسكاً برأيه..

مسطاط: ولكنه لم يزل يحب الناس ويعلمهم ويخدمهم..

إيزيس: إن الذي صدمه ليس الناس.. ولكن طرائق الحصول على الحكم.. لقد اشمأزت نفسه من ذلك، وانتهى الأمر...

توت: أريد أن أراه.. إنه ليس هنا في البيت؟

إيزيس: لا.. إنه هناك في عمله بين الفلاحين.. في تلك المنطقة من الشاطئ الآخر..

توت: ومتى يعود؟..

إيزيس: كان ينبغي أن يعود منذ قليل.. فالشمس قد اقتربت من الغروب. لست أدري ما الذي أخرّه اليوم.. أشعر داخل نفسي بقلق لغيبته..

مسطاط: ما من سبب يدعوك إلى القلق...

إيزيس: عندي سبب، لقد قال لي منذ يومين إنه لمح شخصا غريبا مريبا يجول في تلك المنطقة.. يسأل الناس سرا عن حقيقة ما يعرفون عمن يسمونه الرجل الأخضر..

مسطاط: تظنين أنه طيفون..

إيزيس: من يدري؟!. قد يكون خامره شيء من أمر زوجي وبث عيونه وجواسيسه ..إذا كان هذا حقاً فيا للمصيبة..!

مسطاط: هوّني عليك.

إيزيس: لقد حذرت زوجي عاقبة هذه السمعة بين الناس، قلت له: إن الناس سوف يتناقلون خبرك وعملك في الصحراء فإذا شمك أنف طيفون، وتحرى ، فهنا الخطر.. فأجابني أن ما من خطر يقعده عن خدمة الناس. ومضى إليهم حيث يمضي كل يوم..

توت: إنه لا يدرك ما يفعل..

إيزيس: ماذا تعني؟..

توت: إن الخطر قريب منه.

إيزيس: أترى ذلك؟...

مسطاط: لا تخفها بهذا الكلام يا توت!. لا تخفها..!

توت: سألزم الصمت إذن..

إيزيس: بل تكلم ..إني رابطة الجأش..

مسطاط: نحن على ثقة من شجاعتك. ولكن ليس في الأمر حتى الآن ما يزعج. وتوت لا يقصد إثارة المخاوف.. ولكنه يبدي رأياً عابراً من تلك الآراء..

إيزيس: (كالمخاطبة لنفسها) نفسي منقبضة منذ الصباح.. قلبي يحدثني..

مسطاط: بخير. يحدثك بخير. تفاءلي! نحن مقدمون على خير كثير، وعلى عمل وكفاح ونجاح. لأنك خلقت لذلك..

)تسمع أصوات بعيدة(

إيزيس: (مرتاعه) ما هذا ؟!

توت: صياح في الشاطئ الآخر...!

مسطاط: لعله هتاف المرح .. أو تحية الفلاحين لأوزيريس ..

إيزيس: (تنظر إلى بعيد) ما هذه القوارب العديدة تسير نحو الجنوب..!

مسطاط: (وهو ينظر) لعلها قوارب الفلاحين تحمل متاعهم بعد ان انتهى يومهم والشمس نحو المغيب..

إيزيس: (في صوت غريب) ليست هذه قوراب الفلاحين!

مسطاط: مهما يكن من أمر ففيم الخوف؟.. إن زوجك بخير وإني أعتقد أنه سيكون في أمان حتى ولو علم بأمره طيفون. إن طيفون قد يجد من حسن الرأي أن يتجاهله ويتركه في شأنه، ما دام الناس يعتقدون أنه قد مات غرقا. وما دام هو في عزلته البعيدة عن محيط الحكم لا يأتي من الأعمال ما يعد تهديدا للحكام..

توت: إنه يفعل هذا كما قلت لك، دون أن يدرك..

مسطاط: هو؟.. ماذا يفعل؟..

توت: يكتسب حب الناس. اكتساب حب الناس عمل سياسي.

مسطاط: ماذا تقول؟..

توت: أقول وأنا أعرف ما أقول إن هذا عمل سياسي يعتبره الحاكم تهديدا.. على الأخض إذا صدر ممن له الحق في الحكم.

مسطاط: إذن أوزيريس يعمل، من حيث لا يدري ولا يريد، على الوصول إلى الحكم...

توت: هذا ما قلت.

مسطاط: وبأشرف الطرق..

توت: هذا إذا أوصلته..

مسطاط: أو تشك في إمكان وصوله بها؟.!

توت: سنرى..

مسطاط: نبرات صوتك تخيفني..!

توت: تجلد وترقب..!

مسطاط: (ينهض متحمسا) لا يكفي أن نتجلد وأن نترقب، الان اتضح لي كل شيء.. إن لم يستطع طريق شريف كطريق أوزيريس أن يوصل إلى الحكم.. إن لم يستطع الخير المحض.. خير الناس ونفع الشعب أن يحمل صاحبه إلى السلطان.. بلا تزييف ولا تضليل ولا مأرب شخصي. فما هي النتيجة؟ ما هو المصير؟..

توت: أتسألني؟..

مسطاط: نعم أسألك وأسأل نفسي. إن إخفاق أوزيريس ليحمل معنى فاجعاً. إنه لطمة كبرى لكل شيء طيب على هذه الأرض. إن إخفاقه هو إخفاق للحق وللخير وللشرف.. إخفاق لي ولك.. ولكل من يدافع عن المثل العليا..

توت: دعك الآن من هذه الكلمات السامقة.. فلتقصر الوصف على واقع الأمر: إن إخفاق أوزيريس معناه بصورة أبسط أن العلم والعمل لخير الناس ليسا بالفعل الوسائل المؤدية إلى الحكم..

مسطاط: وما هي أفعل الوسائل إذن؟..

توت: ربما.. وسائل طيفون..

مسطاط: (صائحا) لا تقل ذلك!.. لا تقل ذلك!

توت: أهدأ!.. لست أعني شيئا.. إنك تعلم أني ما رأيت قد طيفون هذا ولا كانت لي به صلة. كل هذه فروض .. وأنت الذي بدأ يفترض..

مسطاط: (متحمسا) أوزيريس يجب أن ينتصر.

توت: أتمنى ذلك بالطبع.

مسطاط: لأن قضيته قضيتنا.. واجبنا أن نمنعه من الهزيمة.. تلك مسؤوليتنا.

توت: مسؤوليتنا! نعم أنا وأنت وحدنا.. أما بقية جماعتنا فأنت تعلم أين هم الآن..!

مسطاط: واأسفاه!.. طيفون قد اشتراهم! إنهم الآن في قصره يدبِّجون له أناشيد مجده، ويذيعون حكمه المآثر، وينفخون له في المزامير..

توت: تلك أيضاً وسيلة من وسائله!

مسطاط: نعم. في يده قوى كثيرة.. حتى القوى التي كان يجب أن تكون في صفنا.. يا للخيانة!. ولكن برغم ذلك.. برغم ذلك سنقاوم..

توت: المقاومة معناها الحرب ضد طيفون، والتعرض لبطش طيفون. أفهم ذلك جيدا!.. تحمل

المسئولية ليست كلمة تقال بل معنى كله المضي رغم هذا الخطر. هل أنت مستعد؟

مسطاط :مستعد.

توت: وأنا كذلك.

مسطاط: أنت كذلك؟!. وافرحتاه..!

توت: نعم. اعتمد عليّ! .. إني اليوم غيري بالأمس. في الماضي كنت أكتفي بالتسجيل. أراقب وأسجل. أما الآن فموقفي قد تغير. لأن كل شيء، كما قلت أنت، قد اتضح لعيوننا. بالأمس لم تكن أمامنا قضية واضحة. أما الآن فنحن أمام قضية هي بالفعل قضيتنا قبل أن تكون قضية أوزيريس. إما أن نترك طيفون ينتصر وتنتصر معه أساليب. وما أن ننصر أوزيريس وننصر معه خيره ومبادئه. إما أن نسلم للمغتصب كما سلم الآخرون. وإما أن نقاوم ..

مسطاط: نقاوم..!

)تسمع أصوات مختلطة لناس آتين.. ثم يظهر رجل من الفلاحين وهو يلهث.. وخلفه جماعة الفلاحين في صمت ووجوم(..

الفلاج: (مترددا) أين ..أين زوجة الرجل الأخضر؟..

إيزيس: (المطرقة طول الوقت تهب واقفة) ماذا حدث له؟..

الفلاح: أنت زوجته؟..

إيزيس: نعم.. تكلم.. ماذا حدث له؟..

الفلاح :تجلدي يا سيدتي..

إيزيس: ماذا حدث له؟؟

الفلاح: (يشير إلى الشاطئ الآخر) كنا هناك.. وكان هو معنا يرينا كيف نتقي الحشائش الضارة.. وإذا جماعة من الجند يأتون في قوارب، ويسألون عنه، فتقدم إليهم وعندئذ..

إيزيس: (متجلدة) وعندئذ ..ماذا؟..

الفلاح: (ينظر إليها لحظة ثم ينظر إلى إخوانه الفلاحين خلفه مترددا (وعندئذ أخذوه..

إيزيس: أخذوه إلى أين؟..

الفلاح: إلى قواربهم..

إيزيس :وبعد؟..

الفلاح: مضوا به..

إيزيس: مضوا به.. حياً؟.!

الفلاح: (في لعثمة وتردد) نعم..

إيزيس: (تحدق فيه) أنت تكذب..

الفلاح: بل هذا ما حدث..

إيزيس: هذا ليس كل ما حدث.. قل الحقيقة!.. الحقيقة!.. اصدقني ..اصدقني..

الفلاح: (ينظر إلى الفلاحين خلفه مترددا مستنجدا) هل أقول؟..

إيزيس :تكلم.. ماذا فعلوا به؟..

الفلاح: (وهو مطرق) قتلوه..!

إيزيس: (هامسة في غير وعي) قتلوه..!

فلاحات: (من بين الجماعة يصحن باكيات) نعم.. قتلوه ..ذبحوه..

إيزيس: (في غير وعي) ذبحوه!

الفلاح: أمام أعيننا.. بخناجرهم ..

الفلاحات: (نائحات) وقطعوه..

الفلاح: نعم قطعوه إرباً.. ووضعوا كل عضو من أعضائه في كيس. وحملوا الأكياس إلى قواربهم ثم مضوا نحو الجنوب..

إيزيس: (تغمض عينيها وتحاول التماسك فيسرع إليها توت ومسطاط ويمسكان بذراعيها حتى لا تسقط وهي تهمس في غير وعي) نحو الجنوب..

فلاحون: صحنا فيهم وحاولنا منعهم فشرعوا في وجوهنا الرماح...

الفلاحات: (نائحات) نعم قتلوه.. قتلوا الرجل الطيب.. الرجل الأخضر.. لن يخضر لنا بعده عود.. لن يطلع عود.. وستجف عن الأرض العيون.. لن تجف عليه منا العيون.. (يبكين صائحات(

إيزيس: (تتنبه عائدة إلى وعيها وتحاول تخليص ذراعيها لتدفع في شبه جنون وهي تصرخ صرخة مكتومة في صوت أجش كأنه الحشرجة) زوجي ..زوجي.!

الفصل الثالث

المنظر الأول

)مكان مقفر على ضفاف النيل قد أنشىء فيه كوخ تخفيه بعض الصخور، وقد وقفت إيزيس وقد بدا عليها أثر السنين ولكن جمالها قد أحاط به إطار من الجلال.. شيخ البلد مائل بين يديها كأنه بين يدي ملكة(..

شيخ البلد: (يجيل البصر فيما حوله) هنا في هذا المكان المقفر تقيمين؟..

إيزيس: نعم.. أخيراً في هذا المكان.. حط بي الترحال ها هنا.. منذ أن قتل زوجي وأنا أنتقل من مكان إلى مكان.. منذ خمسة عشر عاماً و أنا أجوب القفار.. لا أستقر في موضع واحد..

شيخ البلد: خوفاً على ولدك؟..

إيزيس: نعم.. عيون عدونا كانت دائبة البحث عنا.. أما الآن وقد استطعت أن أختفي به حتى بلغ أشده، واصبح فتى جلداً قويا.. فقد آن أوان العمل..

شيخ البلد: إني في خدمتك.. ولكن..

إيزيس :أعلم.. لا تحدثني عما تريد.. إني أعرف عنك كل شيء . ولو لم أكن على ثقة أنك ستخدمنا لما اتصلت بك. إن مصالحك لم تعد مرتبطة بطيفون.

شيخ البلد: لقد خدعني هذا المحتال...

إيزيس: كان يجب أن تفهم أن مثله لا يؤتمن. لقد استخدمك حتى بلغ مأربه ثم فاز بالغنيمة دونك..

شيخ البلد: كلما تذكرت تلك السنين الطويلة التي قضيتها في خدمته دون جدوى!.. لقد كنت ولم أزل موضع رأيه ومشورته.. ومع ذلك ما أن أبدي له الرغبة في بعض المكافأة، حتى يزور عني ويضن علي..

إيزيس: اسمع!.. أنت تعرف أنه كان لي ذهب كثير وحلي.. تركتها في القصر يوم خرجت أبحث عن زوجي..

شيخ البلد :أعرف ذلك.. لقد استولى طيفون على الكنز.. ولا يزال هذا الشحيح محتفظاً به حتى الآن..

إيزيس: لك نصفه.

شيخ البلد: (يفرح) نصفه؟..!

إيزيس: وأنا التي تعدك بهذا.. وأنت تعرف أن إيزيس إذا قالت فعلت. هل تثق بي؟..

شيخ البلد: كل الثقة ...!امرأة وفت لزوجها لا يمكن أن تخدع من يخدمها..

إيزيس: اتفقنا إذن..

شيخ البلد: إني في خدمتك.

إيزيس: ابني حوريس يصر على أن يثأر لدم أبيه. ويريد أن ينازل طيفون بالرمح..

شيخ البلد: أخشى عليه من طيفون.. طيفون قوي جبار.. ويجيد استخدام كل سلاح..

إيزيس: وابني أيضاً قد مرن على الطعام.. وهو يذهب كثيراً إلى الصيد. وقد نازل أسداً أخيراً وقتله.

شيخ البلد: دعك من الصيد ومنازلة الأسود ..إن طيفون لن ينتظر حتى يصيده حوريس.. إن له وسائله الأخرى..

إيزيس: نعم.. ومن أجل هذا فكرت فيك وبحثت عنك .. من أجل هذه الوسائل الأخرى..

شيخ البلد: اتركي لي الأمر إذن أتدبره وأضع الخطط.. لقد حذقنا هذه الأمور.. إن الوصول بحوريس إلى الحكم ليس أصعب من الوصول بطيفون..

إيزيس: لا تنس أيضاً أن حوريس هو ابن أبيه وأنت تعرف من هو أبوه.!

شيخ البلد: هو الخير والعلم والفضل.. ولكن هل ورث حقا فضائل أبيه؟..

إيزيس: أرجو ذلك.. لقد مكثت خمسة عشر عاما ألقنه كل شيء طيب في أبيه .ولم أكتف بهذا بل وضعته منذ صباه في أيدي توت ومسطاط.. وقد تعداه وما زالا يتعهدانه حتى الساعة بالتهذيب.

شيخ البلد: سيكون ملكاً عظيماً. أين هو الآن؟..

إيزيس :في الصيد . قد يأتي عما قليل..

شيخ البلد: أراه في المرة القادمة. أما الآن فإني ذاهب لأبدأ العمل في الحال. وسأعود إليك بتفصيل ما ينبغي. الأمر يتطلب اكتساب بعض النفوس، وبذل بعض الوعود.. وتنظيم بعض الصفوف.. وغير ذلك من الترتيبات التي سيأتيك بيانها فيما بعد.. والآن إلى اللقاء..

إيزيس: إلى اللقاء..!

)شيخ البلد ينصرف.. وما يكاد يختفي حتى يظهر توت ومسطاط آتيين من الجهة الأخرى(

مسطاط) :محدقا ببصره) من هذا؟ أليس هذا شيخ البلد؟.!

توت: (ينظر هو الآخر) نعم. هو بعينه. كرشه ومشيته وعصاه...!

مسطاط: ماذا جاء يفعل هنا؟!

إيزيس: جاء لزيارتي.

مسطاط: أوَيجسر!؟.

إيزيس: أنا التي طلبت ذلك..

مسطاط: أنت؟! طلبت ذلك؟.!

إيزيس: نعم أنا.

مسطاط: أنت تعلمين أنه من أخطر أعدائنا.

إيزيس: لم يعد كذلك اليوم، إنه سيعمل من أجلنا...

مسطاط: هذا الرجل..!!

إيزيس: مصلحته الآن في جانبنا.

مسطاط: مصلحته؟ بالطبع! مصلحته نعرفها كلنا! إنه لا يعمل بغير الرشوة! لقد رشوته إذن؟..

إيزيس: ولم لا..

مسطاط: (ملتفتا إلى توت الصامت (أسمعت يا توت؟.

إيزيس: (بعزم) حوريس ابني يجب أن ينجح.. أسمعتم؟ يجب أن ينجح..

مسطاط: هذا ما نتمناه.. هذا ما نعد له العدة ونعمل لتحقيقه منذ خمسة عشر عاماً .. ولكن..

إيزيس: ولكن ماذا؟.. ماذا تريد أن تقول؟..

مسطاط : لا أريد أن أقول غير شيء واحد: إن كل ما شيدناه في تلك السنين الطويلة قد انهار في لحظة واحدة...

إيزيس: إنك لم تكن تشيد إلا على رمال الأوهام..

مسطاط :الأوهام؟..

إيزيس: لقد تركتك أنت وتوت تحشوان رأس ابني حوريس بتلك الأفكار الجميلة، وأنا أعرف أنها لن توصل إلى شيء.. اتركاني الآن أفعل ما أراه مجديا..

مسطاط: تريدين لحوريس الوصول من ذلك الطريق؟..

إيزيس: من أي طريق؟..

مسطاط: طريق الرشوة والتدجيل والتضليل..

إيزيس: أطلق عليه ما شئت من أوصاف.. هذا لا يمنعه من أن يكون الطريق الموصل إلى الحكم..

مسطاط: تنكرت هكذا أخيراً لمبادئ زوجك؟! ياللخيانة؟

إيزيس: مكانك يا مسطاط مكانك!. لم أتنكر قط لمبادئ زوجي، ولم أخن عهده قط.. إن زوجي لم يطلب العوده إلى ملكه. لقد زهد في الملك وأسبابه كما عرفتم وانقطع لخدمة الناس. ولم يكن له من مطمع إلا أن يفجر ينابيع الخير بين أيدي هؤلاء الفلاحين المساكين. وكنا نحسب أنا وأنتم أنه سيترك آمنا يؤدي هذه الرسالة في هدوء. ولكن طيفون لم يتركه. وأنتم تعلمون ماذا فعل به؟ ماذا فعل بزوجي؟!. زوجي العزيز بقلبه الطيب ونفسه الطاهرة ظهر الأطفال، وهو لم يرتكب ذنبا، ولم يفكر في عدوان، ولم يسيء إلى أحد..

)تسقط من عينها دمعة(...

مسطاط) :متأثراً) إني ما قصدت..

إيزيس: (تمسح دمعتها وتصيح بصوت أجش) لا أريد لابني هذا المصير! أفاهمون؟! لا أريد لابني أن يقتل وأن يقطع جسده إربا إربا... وأن يوضع كل عضو من أعضائه في كيس، وأن يلقى كل كيس في موضع مختلف من النيل والبحيرات والمستنقعات.. لا.. لا.. لا.. لا أريد ذلك لحوريس.. أسمعتم!. لا أريد ذلك لابني حوريس...

مسطاط: نحن أيضاً لا نريد له ذلك.. وأنت تعلمين..

إيزيس: إذن لماذا تريدون له أن يسير في طريق أبيه المنكوب؟..!

مسطاط: أردنا له الحكم من طريق الشرف.. أليس كذلك يا توت؟! لماذا تصمت الآن كل هذا الصمت يا توت؟.. تكلم معي قليلاً.. تكلم..!

توت: إني أصغي إليكما.. وأفكر

مسطاط: تفكر؟!. أبدأت عقيدتك أنت أيضاً تتزعزع؟..

توت: قلت لك كثيراً لا تسرف في استخدام هذه الألفاظ!. إني أفكر وكفى؟.. ألا يجوز لي أن أفكر في مشكلة لها كل هذه العواقب!؟.

مسطاط: أنسيت أننا مرتبطون بقضية، نجاهد في سبيلها من أعوام؟ أتذكر ما هي قضيتنا؟

توت: نعم الوصول بحوريس إلى الحكم.

مسطاط: على أساس مبادئنا نحن.. هذا هو الشرط.

إيزيس: (صائحة) لا تصغ إلى هذا الساذج يا توت. إنه ينسى أننا نعد لمعركة .وأن خصمنا في هذه المعركة رجل قوي مغامر بارع الوسيلة واسع الحيلة. وهو فوق ذلك مطلق اليدين يطعن بكل سلاح. في حين أننا نريد أن نكتف حوريس بقيود الشرف ونقدمه لخصمه مغلول اليدين مكشوف

القلب...

توت: حقا إنها لمخاطرة..!

مسطاط: أنت أيضاً يا توت؟.. هذا ما توقعته .. إنك لن تمضي معي إلى النهاية..

توت: ابسط لي قبل كل شيء وبكل وضوح: ما هو في رأيك السبيل الحقيقي لبلوغ حوريس الهدف؟..

مسطاط: الشعب.

إيزيس: إن مسطاط ينسى أن زوجي أوزيريس كان معبود الشعب في يوم من الأيام، فما إن ظهر أخوه المغامر طيفون حتى استطاع ببراعته وحيلته وأساليبه وأكاذيبه أن يسلب من زوجي المسكين: ملكه وشعبه معا..

توت: حقا.. إن اليد البارعة تستطيع أن تسرق تأييد الشعب أيضاً فيما تسرق..

مسطاط: (صائحا) إلى حين.. إلى حين..

توت: نعم.. إلى حين ظهور يد أخرى أبرع..

مسطاط: (بمرارة (أهذه عقيدتك؟..

توت: اسمع يا مسطاط!.. إن مبادئ أوزيريس.. أي مبادئنا لا يمكن أن تعمل عملها إلا في حالة واحدة وعلى فرض واحد: هو خلو الميدان من المغامر والمحتال ..أما إذا ظهر المغامر فلا بد أن تحاربه بسلاحه كي تنتصر..

مسطاط: وما قيمة هذا الانتصار؟.!

توت: ماذا تعني؟..

مسطاط: أعني ما قلته قبل الآن: إذا كان لا بد لانتصار رجل العلم والخير من أسلحة المغامر والمحتال، إذا كان لا بد لنجاحه هو أيضاً من استخدام الرشوة والتدجيل والتضليل، فمعنى ذلك أنه لم يعد هناك أمل في القوة الذاتية للعلم والخير.. وإذا سلمنا نحن خدام مبادئ أوزيريس بذلك فمعناه بكل بساطة: الخيانة لقضيتنا. وها أنذا أكرر ألفاظي بذاتها، لأني لا أجد غيرها تعبيراً صحيحاً عن الموقف. وما دام في قلبي عرق ينبض فلن أسمح لنفسي أن أخون قضيتي. إني لم أناصر حوريس لأنه حوريس بل لأنه يمثل مبادئ . فإذا ضاعت هذه المبادئ فلا معنى عندي لانتصار حوريس. لن أخون القضية الحقيقية من أجل نجاح شخص. لا.. لن أخون.. لن أخون .. هذه كلمتي الأخيرة.. وليس لي الآن إلا أن أذهب، وأقول لكم، وداعاً..!

)ينصرف سريعاً.. تاركا إيزيس وتوت ينظران إلى ذهابه المفاجئ واجمين ذاهلين(

المنظر الثاني

(أما قصر طيفون – تظهر إيزيس وقد تدثرت بثوب يخفي وجهها وخلفها توت.. وهما يمشيان بحذر ويلتفتان حولهما كأنهما يبحثان عن أحد...)

إيزيس: (هامسة) أتراه قد دخل القصر؟.

توت: (بصوت خافت) لا يستطيع ابنك أن يدخل قصر طيفون والحراس قائمون. أغلب ظني أنه سيلقاه هنا في هذه الساحة.

إيزيس: نستطيع إذن من موضعنا هذا أن نرقب المبارزة.

توت: لا أنصحك بهذا. إنه لمشهد قد لا يحتمله قلب أم.

إيزيس: إني أحتمل..

توت: أعرف قوة احتمالك. ولكن الذي أخشاه أن المبارزة نفسها لا تتم. إن طيفون قديرٌ أن يغتال حوريس اغتيالا.. ما عليه إلا أن يأمر حراسه ليحيطوا بالفتى ويقتلوه..

إيزيس: لقد خامرني هذا الخوف. ولكن شيخ البلد أكد لي أن طيفون إذا واجهه ابني بالتحدي فإن كبرياءه وصلفه سيدفعانه إلى قبول النزال.

توت: أأنت واثقة في شيخ البلد؟

إيزيس: إذا كان يخدعني فقد خسرنا كل شيء. لقد دبرنا معاً كل أمر وحسبنا حساب كل احتمال ولم أفض بالتفاصيل إلى مخلوق كما طلب مني. فإذا كان في خفى أمره مقيما على إخلاصه لطيفون، وكشف له سرنا، فقد هلكنا...

توت: مهما يكن من أمر فلم يبق أمامنا إلا المخاطرة. لقد فات أوان التردد.. والرجوع إلى الوراء.

إيزيس: نعم. لم يبق إلا الإقدام.

توت: (ملتفتا جهة باب القصر) انظري!.. ها هو ذا ابنك حوريس قد ظهر رافعا رمحه، ووقف يسد الطريق إلى القصر...

إيزيس: (في صوت مضطرب) ... نعم...

توت: ما من شك في أنه علم أن طيفون قريب العودة من الصيد.. فوقف هكذا ليتلقاه بالتحدي..

إيزيس: (مرتعدة الشفتين) نعم..

توت: (ناظرا إليها) إنك تضطربين كقشة بين الموج.. ألم أقل لك إن الموقف شاق عليك. إنه ابنك وفلذة كبدك. هلمي بنا نذهب بعيدا.

إيزيس: (وهي تنظر إلى ابنها عن بعد واجفة القلب) دعني هنا.. قريبة منه..

توت: قد يضره هذا ولا ينفعه . قد يلمحك. وقد يضطرب هو الآخر. وهو أحوج ما يكون الساعة إلى الثبات.

إيزيس: أترى ذلك؟

توت: أسمع جلبة قريبة. هلمي بنا! هلمي بنا..

(يجذبها من يدها وينصرف بها سريعا.. ولا يمضي قليل حتى يظهر طيفون ومعه شيخ البلد وحاشية صغيرة تحمل صيدا.. وعندئذ يتقدم الفتى حوريس بخطوات ثابتة قوية ويقف في وجه طيفون ساداً عليه الطريق برمحه..)

طيفون: (هازئاً) عجبا!.. من هذا اللام الجريء؟!.

حوريس: ستعرف فيما بعد. أما الآن فإني متعجل إلى انتزاع قلبك الدنس بسن رمحي.. دافع عن نفسك!..

طيفون: أيوجد في مملكتي من يقول لي هذا الكلام!

حوريس: الآن يوجد. اشرع رمحك!..

طيفون: أتظن أيها الغر أن رمح طيفون قد جعل لينازل به الصبية والغلمان!!.

حوريس: قد جعل ليقتل به الأبرياء غيلة.

طيفون: أيها الحراس!...

حوريس: (يرفع رمحه) احذروا أن يقترب مني أحد.. لا تعرض رجالك يا طيفون للموت، ولا تجعل من أجسادهم دروعا تقي جبنك..

طيفون: نه سيدفعني إلى قتله..

شيخ البلد: نازله أيها الملك. فهو صيد سهل.

طيفون: ومن قال لك إني أحب الصيد السهل؟..

شيخ البلد: قصدت أن كل صيد بالنسبة إليك هو سهل. لقد عدت الآن من منازلة الضواري. وما هذا إلا شبل مغرور، أكمل به يومك ولقنه درسك.

حوريس: لا تتردد يا طيفون، ولا تجعلني أنتظر..

طيفون: تريد الموت؟..

حوريس: نعم.. موتك...

طيفون: (يشرع رمحه) سأبدأ بقطع لسانك!،، ونزع عينك حتى لا تكلمني هكذا ولا تنظر إلي هكذا..

حوريس: وأنا سأبدأ بقطع يديك حتى لا تمضي في سرقة ما ليس لك!..

(يلتحمان متبارزين بالرماح.. وينحى شيخ البلد الحاشية جانبا ليتركوا المتبارزين لمصيرهما...)

طيفون: (وقد أحس صلابة خصمه) من أنت؟..

حوريس: أقول لك الآن من أنا.. ليستيقظ ضميرك لحظة قبل أن تموت.. أنا حوريس..

طيفون: حوريس؟..

حوريس: حوريس المنتقم لأبيه.

طيفون: ومن هو أبوك؟..

حوريس: أخوك الذي اغتصبت ملكه..

طيفون: تقصد أوزيريس؟!. يا لك من محتال! كنت أريد قتلك لوقاحتك.. ولكني أقتلك الآن لادعائك..

حوريس: بل لحرصك على عرش لم يعد لك حق فيه!..

طيفون: (يحمل عليه بالرمح) خذها لتسكنك القبر!..

(يطيح برمح حوريس ثم يدفع رمحه ليطعنه وعندئذ يهرع شيخ البلد...)

شيخ البلد: (يمسك بذراع طيفون) لا تقتله!..

طيقون: أتمنعني؟..

شيخ البلد: نعم.. أصغ إلى مشورتي.. لا تقتله!..

طيفون: ألم تسمع ما تفوه به؟!.

شيخ البلد: نعم.. سمعت.. ولهذا أرى لك أيها الملك أن تمتنع عن قتله بيدك.

طيفون: ماذا جرى لك؟!..

شيخ البلد: فطنت إلى أمر ستراه بعد قليل هو الصواب وقد تكافئني عليه. اجعل هذا الفتى أسيرك، وسلمه إلى الحرس ليضعوه في الحبس..

طيفون: ولماذا لا أقتل هذا الدعي؟!.. إنه هو الذي أراد ذلك.. وعرض نفسه وتجرأ..

شيخ البلد: صوب الرأي يقضي بأن تتريث وتدع عقابه لغيرك..

طيفون: ماذا تعني؟.. أوضح!.

شيخ البلد: ان هذا الفتى قد أشاع ولا ريب قبل أن يواجهك بالتحدي أنه ابن أوزيريس. كما ادعى أمامك الآن. وربما وجد من يصدقه . فإذا قتلته بيدك الساعة، ذاع في الناس أنك قتلت ابن أوزيريس تخلصا من حق له في العرش.. فإذا سرت في الشعب مثل هذه الإشاعة فإنها قد تثير من المتاعب ما لا نحب، وقد تحدث من النتائج ما لا نتوقع..

طيفون: حقا.. هذا ما لم أفطن إليه..

شيخ البلد: هذا ما فطنت إليه أنا فجأة الآن..

طيفون: إذن أنت ترى ..

شيخ البلد: أرى من حسن السياسة أن نقدم هذا الفتى إلى المحاكمة.. أمام الشعب..

طيفون: ليظهر ادعاؤه جليا أمام الناس..

شيخ البلد: نعم عندئذ ترى الشعب نفسه هو الذي سيحكم عليه بالموت!..

طيفون: (باسما بمكر) ومعنى هذا الحكم بالطبع..

شيخ البلد: (بنفس الابتسامة الماكرة) بالطبع معنى هذا الحكم من الشعب هو تثبيت حقك الشرعي في الملك تثبيتا دائما..

طيفون: حقا إنه لرأي بارع!.. إنك لفطن داهية!..

شيخ البلد: ألم أقل إن هذا رأي يستحق المكافأة؟..

طيفون: نعم.. فيما بعد.. فيما بعد..

شيخ البلد: دائما فيما بعد!!

طيفون: الآن أيها الحراس، خذوا هذا الفتى الدعي وأودعوه الحبس، ليحاكم أمام الشعب..

المنظر الثالث

(الساحة التي أمام قصر طيفون وقد امتلأت بالشعب في هيئة محكمة – وقد وضع حوريس بين حارسين ووقف على مقربة منه توت وخلفه إيزيس ووقف في مواجهته طيفون وخلفه بعض حاشيته. بينما أخذ شيخ البلد يجوس خلال الناس..)

طيفون: (صائحا) أيها الفتى!.. هل تقبل أن يكون الشعب القاضي بيني وبينك؟..

حوريس: هذا ما كنت أتمنى..

طيفون: اسمعوا إذن أيها الناس ماذا حدث.. هذا الفتى رفع السلاح في وجهي وأراد قتلي..

صوت: (من بين الحاشية) فليقتل! فليقتل!..

شيخ البلد: (صائحا) السكوت.. السكوت!..

توت: (صائحا) سكوت يا أعوان طيفون!..

طيفون: (بغضب) من هذا المتكلم؟..

توت: ألا تعرفني؟..

طيفون: ماذا جئت تصنع هنا اليوم يا توت؟ وعهدي دائما بك في عزلة عنا..

توت: جئت أتكلم بلسان حوريس!...

طيفون: ليس لحوريس هذا لسان؟.. أم أن لسانه لا يعرف غير القحة والجرأة..

توت: صاحب الحق لا يحسن إظهار حقه، كما يحسن صاحب الباطل إخفاء باطله..

طيفون: سترى الآن أينا صاحب الحق؟!.

توت: لهذا جئت أنا وجاء هذا الشعب. جئنا نرى الحق.. تكلم وأرنا إلى أي مدى بلغت براعتك..

طيفون: ما دمت قد نصبت نفسك أخيرا مدافعا عن هذا الدعي فسأريك حقي لا بالبراعة ولكن بالدليل..

توت: ونحن لا نريد للناس أن يقتنعوا إلا بالدليل.. ولن نواجه الشعب إلا وفي يدنا الدليل.. تكلم إذن!..

طيفون: قبل كل شيء هل تنكر أن هذا الفتى رفع في وجهي السلاح؟ أتنكر هذا الواقع؟..

حوريس: (صائحا) نعم.. لقد رفعت في وجهك السلاح.. هذا واجبي!..

طيفون: أسمعتم أيها الناس!.. لقد اعترف.. أتعرفون ما معنى رفع السلاح في وجه ملكه؟!. إنها الثورة!.. تلك جريمته الأولى.. أثبتها هو باعترافه.. دون حاجة إلى دليل..

صوت: (من بين الحاشية) العقاب للثائر! الموت للثائر!...

شيخ البلد: (صائحا) السكوت .. السكوت!..

طيفون: (في غضب لشيخ البلد) لماذا تسكت أنت الشعب دائما.. دعه يظهر رأيه..

توت: ليس هذا صوت الشعب يا طيفون..

طيفون: (يتجه إلى الناس) أليس هذا رأيكم أيها الناس؟ ألم يعترف أمامكم الآن هذا الفتى أنه رفع في وجهي.. وجه مليكه .. وجه ملككم.. سلاح الثورة..

الشعب: (صائحا) نعم..

طيفون: (لتوت منتصرا) ها هو ذا صوت الشعب قد ارتفع يؤيدني..

توت: لا تحاول يا طيفون أن تنتزع من الشعب تأييداً مغتصبا مبنيا على التضليل! يجب أن تبين أولا كيف رفع حوريس في وجهك السلاح..

طيفون: واجهني برمحه..

توت: وما قصده من ذلك؟..

طيفون: اغتيالي...

حوريس: (صائحا) هذا زور وبهتان!..

توت: نعم.. هذا كذب وزيف!. ليس حوريس هو الذي يغتال .. إنه لم يكن اغتيالك بل كان يقصد طلبك للمبارزة!..

طيفون: سمها مبارزة!.. فليكن. لماذا أراد أن يبارز ملكه؟.. إذا كان شجاعا حقا كما يزعم فليجهر الآن بالسبب!..

حوريس: ليس قول الحقيقة يحتاج عندي إلى شجاعة.. لقد طلبتك للمبارزة كي انتقم لأبي..

طيفون: ها هو ذا اعترافه الثاني.. الانتقام لأبيه!.. أتعرفون من هو أبوه المزعوم؟.. سلوه عن هذا الأب كي يجيب هو بفمه؟..

حوريس: أبي هو أوزيريس.

طيفون: أسمعتم أيها الناس؟.. هذا الفتى هو ابن أوزيريس ؟ ألم تضحكوا بعد؟..

الحاشية: (تضحك مقهقهة)..

طيفون: (للناس) تضحكون بالطبع.. لأن هذا أمر غير معقول!..

توت: الشعب لم يضحك بعد.. إنه ينتظر الدليل..
طيفون: أي دليل تريد؟.. يكفي أن يسأل هذا الفتى .. أيها الناس اسألوا هذا الفتى الدعي عن أوزيريس كيف هو؟ فليصفه لنا..
الشعب: (صائحا في حوريس) صفه لنا!..
حوريس: (مرتبكا) إني..
طيفون: (منتصرا) تكلم! .. أين لسانك الجريء .. صفه لهم!..
طيفون: (ساخراً) أسمعتم؟!. لم يره؟.. بالطبع .. لا يمكن أن يراه.. لأن أوزيريس كما تعلمون مات غرقا قبل أن يولد هذا الغلام بأعوام طوال. اضحكوا مرة أخرى أيها الناس على هذا الابن العجيب، الذي جاء لينتقم لأبيه! هذا الأب الذي مات قبل ولادة الابن بسنين عديدة..
(يضحك مقهقها وتضحك معه الحاشية)
حوريس: (صائحا في غيظ) كفى ضحكا!.. كفى ضحكا.. أنا ابن أوزيريس.. ألا تصدقون؟..
طيفون: لا تطلب إليهم أن يصدقوا ما لا يصدقه العقل!..
حوريس: (غاضبا) حذار يا طيفون أن تنكر نسبي هذا الإنكار!
طيفون: أتهددني أيضاً الآن؟!.
حوريس: إن لم أكن ابن أوزوريس فابن من إذن أكون؟!.
طيفون: أتسألني أنا؟.. سل أمك التي ولدتك!..
الحاشية: (يضحكون مقهقهين)..
إيزيس: (لطيفون في هدوء وقور) احترم زوجة أخيك أيها الرجل!..
طيفون: قولي هذا لا يمسك بسوء أيتها السيدة إنما أنا أدفع عن أخي الادعاء..
إيزيس: أتنكر أن حوريس هذا ابني..
طيفون: بل هو ابنك. أنت حرة في أن تأتي بولد من حيث تشائين!
إيزيس: هذا الولد هو ابن أوزيريس.
طيفون: أما هذا فأنكره.
إيزيس: ليس لابني أب غيره.
طيفون: له أب على كل حال.. ولكنه ليس أخي أوزيريس بأي حال..
إيزيس: تعني أنه سفاح؟!.

طيفون: أعني أنه ليس ابن أخي. وإذا كنت مصرة على إلصاقه بهذا النسب، فإني أشهد الناس على أنها مؤامرة.. نعم أيها الشعب.. تيقظ!.. إنها مؤامرة تحاك خيوطها حولي لانتزاع الحكم مني!.. زوجة أخي الذي مات غرقا كما تعلمون تأتي اليوم بغلام لا ندري من أين جاءت به، فيرفع في وجهي السلاح ويطلبني للنزال ويدعي أن له حقا في العرش. كل ذلك واضح كالشمس، وما عليكم إلا أن تحكموا العقل فيظهر لكم هذا الاحتيال في صورة لا تحتاج إلى دليل.

الحاشية: (صائحة) الموت للمتآمرين!.. الموت للطامعين!.. الموت للمحتالين!..

شيخ البلد: السكوت.. السكوت..

طيفون: (لشيخ البلد في غيظ) اسكت أنت!.. دع الشعب يحكم. إنه قد اكتشف المؤامرة ويريد أن ينفجر

.. دعه ينفجر!..

شيخ البلد: سينفجر في الوقت المناسب..

طيفون: (هامسا له) الآن أنسب الأوقات،.. افعل شيئا .. حركه قليلا..

شيخ البلد: سيتحرك من تلقاء نفسه.. عندما يفهم..

طيفون: (يتجه إلى الناس) افهم أيها الشعب.. إنها مؤامرة.. إنه احتيال.. أنتركهم يتآمرون على ملكك المحبوب؟.. أتدعهم يحتالون على حكمك السعيد.. قل كلمتك!.. قل كلمتك!..

الشعب: (ينبعث منه هياج مكتوم) أليس ابن أوزيريس إذن؟!.

طيفون: (يحمس الشعب) بل هو دعي محتال أيها الناس!.. احكموا في هذا الاحتيال وهذه المؤامرة!.. حكمكم هو الصدق!. هو صوت الحق.. الفظوا كلمتكم.. آزروا ملككم!..

توت: مهلا يا طيفون!.. مهلا.. لا تثر الناس بهذه الكلمات.. إن للمؤامرة والاحتيال صورة واضحة في رأسك لأنك أعرف بهما. فلا عجب أن تتهم بهما الآخرين.. ولكني دعني أسألك: هل طالبك حوريس بالعرش حتى تزعم أنه طامع محتال؟!.

طيفون: إن مجرد ادعاء النسب يؤدي إلى هذا الهدف..

توت: في نظرك أنت.. أنت الحريص على هذا الملك.. ولكن حوريس كان يطالبك بالمبارزة لسبب آخر.. أنت تعرف ما هو..

طيفون: استلاب ملكي.

توت: بل الانتقام لأبيه. هذا كل ما يعني هذا الابن البار. هذا هو ما يعتقد أنه واجبه..

طيفون: الانتقام لأبيه!..

(يضحك ساخرا)

إيزيس: (صائحة) نعم.. الانتقام لأوزيريس الذي اغتلته أنت يا طيفون اغتيالا.. وأمرت بتمزيق جسده، وتقطيع أوصاله، وإلقاء كل عضو من أعضائه في مكان سحيق من النيل والبحيرات والمستنقعات..

طيفون: أهو إدعاء جديد؟!

إيزيس: بل هي الحقيقة التي تعلمها وتكتمها في أعماق نفسك المظلمة، فرقت بين أعضائه تفريقا حتى لا أستطيع أنا العثور عليه كما عثرت عليه أول مرة!..

طيفون: إنها تهمة فظيعة. أو تسكتون أيها الناس على هذا الاتهام الكاذب لي.. ألا تعرفون كلكم أن أوزيريس مات غريقا منذ أعوام طويلة؟. تكلموا.. هذه امرأة جنت ولا شك.. بل هي كما يعرف أكثركم قد أضاعها السحر والتشرد حزنا على زوجها.. قولوا لها ما تعرفون عن موت أوزيريس.. ألم يمت غريقاً ؟

الشعب: نعم.. مات غريقا..

طيفون: أسمعت بأذنك ما يقوله الشعب؟.

إيزيس: لا. لم يمت غريقا.. هذه إشاعات أطلقتها أنت أيها الحاكم المغتصب، لقد حبسته في صندوق وألقيته في النيل وزعمت للناس أنه مات غريقا. ولكن الصندوق حمله التيار والتقطه ملاحون وباعوه لملك ببلوس وهناك عاش زوجي أوزيريس زمنا حتى لحقت أنا به وعدنا إلى مصر واختفينا في البراري وأنجبنا حوريس هذا.. وعشنا هانئين إلى أن اكتشفت أنت يا طيفون وجودنا وقتلت زوجي هذا أشنع القتل.. نعم مرتين تقتل زوجي.. مرتين تغتاله يدك الأثيمة!

طيفون: يا له من جنون!.. يا لها من قصة لا يتخيلها إلا رأس ساحرة مخبولة!..

إيزيس: تلك هي الحقيقة أيها الناس!..

طيفون: أيمكنكم تصديق هذه القصة البارعة..

الشعب: (يموج بالصياح) أوزيريس وضع في صندوق؟.

طيفون: أتصدقون هذا التلفيق؟.

الشعب: (صائحا) أوزيريس مات مقتولا؟!.

طيفون: أتصدقون هذا الافتراء؟!.

الشعب: (صائحا) نريد الدليل!.. أين الدليل؟!.

طيفون: (بصوت المنتصر) ها هي حكمة الشعب قد ظهرت.. نعم الدليل.. دليلك أيتها المرأة.. هاتي الدليل!..

إيزيس: سأقدم الدليل..

طيفون: أين هو؟.. أسرعي!..

إيزيس: (تبحث حولها مضطربة) انتظروا قليلا..

طيفون: (ظافرا) ننتظر؟!. أسمعتم أيها الناس؟!. تريد منا أن ننتظر؟ ننتظر ماذا؟ ننتظر قليلا حتى يتفتق خيالها الخصب عن قصة جديدة.. أتقبلون منها هذه السخرية بكم..

الشعب: (صائحا هائجا) لا.. لا.. لا.. نريد الدليل حالا.. الدليل...

توت: (يبحث حوله مرتبكا) أيها الشعب الكريم.. لحظة واحدة.. تفضل علينا بلحظة قصيرة.. مهلة صغيرة..

طيفون: (هازئاً) أنت أيضاً يا توت قد فرغت جعبتك ووهنت حجتك.. وتريد أن تستجدي الانتظار حتى يواتيك مدد من الإلهام والتفكير!.. لماذا وضعت نفسك في هذا الموضع المخزي، واخترت بعد طول انزواء أن تنضم إلى الجانب الخاسر الضعيف!..

توت: واجبي مؤازرة الحق..

طيفون: بل قل التلفيق.. إن الذي استهواك ويستهوي أمثالك من المغرورين هو أمثال هذه المواقف.. مواقف البطولة الزائفة.. حيث يطيب للخيال أن يمرح في تصورات ويهيم في أحلام وآمال.. ولكن طاش سهمكم.. وظهرت حقيقتكم.. وما أنتم الآن أمام الشعب إلا كاذبون مختلقون وخونة متآمرون..

إيزيس: (هامسة لتوت في اضطراب ويأس) ماذا تصنع الآن؟..

توت: (يهمس لها وهو يبحث حوله) صبرا.. صبرا..

طيفون: السخرية طالت بكم أيها الناس!.. افتروا امامكم كل هذه الافتراءات، وعندما شاءت فطنتكم وطالبتموهم بالدليل.. صمتوا وجمدوا كأنهم تماثيل!.. أليس لكم الحق الآن في أن تصدروا حكمكم.. العدل يقضي أن تلفظ حكمك الآن أيها الشعب.. إني أطالب بمحاكمة المختلقين عليّ .. الكاذبين عليك.. أطالبكم بالعدل أيها الناس.. احكموا .. احكموا..

الحاشية: (تصيح) الموت للمفترين..

الشعب: (هائجا) نعم.. نعم.. الموت.. الموت..

(يظهر في هذه اللحظة ملك ببلوس وخلفه حاشيته)

ملك ببلوس: (صائحا) انتظروا.. انتظروا..

طيفون: (بغضب) من هذا الرجل؟!.

إيزيس: (بفرح) الدليل.. ها هو ذا الدليل..

ملك ببلوس: (ناظرا إلى إيزيس معتذرا) أخرني عائق في الطريق..

طيفون: من هذا الرجل؟..

الشعب: (صائحا) من هذا الرجل؟!.

إيزيس: (صائحة في لهجة انتصار) ملك ببلوس!..

طيفون: (يقطب الحاجبين) ملك ببلوس!..

توت: نعم.. من فمه ستعلم ويعلم الجميع إذا كنا كاذبين أو صادقين..

طيفون: عدو أجنبي!..

ملك ببلوس: بل صديق وضيف..

الشعب: فليتكلم ملك ببلوس..

ملك ببلوس: يا شعب مصر الكريم.. بلدي يحييكم. أرضنا في الشرق ، شرق أرضكم.. فإذا ذهب أحدكم اليوم إلينا سمع الناس عندنا يشيرون إليه بحب وفرح وإعجاب: هذا رجل من الغرب.. من تلك البلاد التي جاءتنا بالصديق المصري، ذلك الذي بذر في أرضنا الخير والبركة بفكره وابتكاره واختراعه، وكان يعمل لدينا كالأجير يقوم مع الشمس الطالعة ويرجع مع الشمس الغاربة.. ليس له من مطمع إلا خدمة الناس.. في بلد غير بلده وقوم غير قومه.. ذلك الصديق المصري كما يدعونه عندنا هو أوزيريس.

الشعب: (متسائلا) أوزيريس؟!.

ملك ببلوس: نعم.. أوزيريس الذي ألقى في نيلكم وطرد من بلادكم وجاء به إلى قصري الملاحون فباعوه لي..

الشعب: (صائحا) صدقت إيزيس إذن..

ملك ببلوس: صدّقوا هذه السيدة في كل ما تقول.. فهي من أشرف نساء الأرض.

الشعب: أوزيريس إذن لم يمت غرقا؟!

ملك ببلوس: لقد خرج من بلادنا صحيحا معافى معززاً مكرما في صحبة زوجته إيزيس، منذ نحو ثمانية عشر عاماً.. وعلمت بعدئذ بقليل أنهما أنجبا ابنهما حوريس.

توت: ما قولك الآن يا طيفون؟..

طيفون: كل هذا تلقين من إيزيس.. وما أرى في هذا دليلا على أن ملك قد شاهد بعينيه أخي أوزيريس..

ملك ببلوس: شاهدته بعيني رأسي ومكث في قومي زمنا وجاءني به الملاحون بصندوقه ودفعت لهم مالا كثيرا..

طيفون: ما دليلك؟.. طالبوه بالدليل!..

ملك ببلوس: جئت بدليل لا تستطيع إنكاره..

طيفون: هات الدليل في الحال بغير انتظار..

ملك ببلوس: إليك!

(يشير إلى أحد أتباعه ويصفق بيديه.. فتظهر جماعة من رجاله يحملون الصندوق...)

إيزيس: (صائحة) أتعرف هذا يا طيفون؟..

طيفون: (في صرخة تخرج على الرغم منه وقد شحب وجهه) الصندوق!

إيزيس: نعم.. الصندوق الذي وضعت فيه أخاك وألقيت به في النيل..

الشعب: (هائجا) الصندوق!.. الصندوق! إنه القاتل.. الموت للقاتل!..

شيخ البلد: (هامسا في أذن طيفون) انج بجلدك يا طيفون قبل فوات الأوان!..

طيفون: (وهو يتسلل بحذر خلف شيخ البلد) خدعتني أيها اللعين.. عندما دفعتني دفعا إلى هذا الموقف أمام الشعب..

(يختفي هاربا بينما الشعب يندفع إلى حوريس ويحمله على الأعناق...)

الشعب: (هاتفا) إلى عرش أبيك يا حوريس. .إلى الملك يا حوريس.. إلى الحكم..

حوريس: أعطوني رمحي .. ولا تدعوا المجرم يهرب!.. أريد الانتقام لأبي!..

إيزيس: (لابنها حوريس) لا تلوث يدك النقية يا بني بدمه الدنس.. حسبنا الشعب وقد عرف أخيراً الحقيقة!..

توت: (لإيزيس) كم من الجهد بذلت في حياتك يا إيزيس، كي يعرف الشعب الحقيقة...

إيزيس: ليس يهمني الجهد.. كل أملي أن يكون زوجي أوزيريس في خلوده صافحا عنا، راضيا عما فعلنا...

(ستار)

بـيـان

ليس المقصود هنا تصوير الحياة الفرعونية، أو بسط العقائد المصرية القديمة، بل المقصود هو إبراز أشخاص الأسطورة إبرازاً جديداً إنسانياً، وتخريج معناها على النحو المفهوم الحي في كل عصر، وفي العصور الحديثة على الأخص.

***

منذ تأليف مسرحية شهرزاد حوالي 1930 وشخصية إيزيس تتهيأ للظهور يوما. وقد ورد ذكرها بالفعل في نصوص تلك المسرحية القديمة، لما بين المرأتين من وشائج الشبه في علاقة كل منهما بزوجه. كلتاهما قد فعلت شيئاً مجيداً من أجل زوجها.

***

إذا كانت الصورة المميزة لإيزيس المصرية هي صورة الوفاء الزوجي، فإن المقارنة بينها وبين "بنيلوب" اليونانية لأمر جدير بالالتفات فالزوجتان قد اتفقتا في وضع واحد، هو أن زوجيهما اختفيا. فما الذي فعلته الزوجتان؟ أما اليونانية "بنيلوب" فقد اكتفت بالجلوس في دارها تنتظر عودة زوجها وتنسج ثوبها المشهور. وأما المصرية إيزيس فلم تكتف بالجلوس والانتظار، بل قامت تبحث وتكافح وتناضل.. الوفاء عند بنيلوب هو وفاء سلبي. أما الوفاء عند إيزيس فهو وفاء إيجابي.

***

ما هي حقيقة الصراع بين أوزيريس وطيفون؟ ربما كان في نظر المعاني الحديثة صراعا بين رجل يعرف كيف يخدم الناس، ورجل يعرف كيف يستخدم الناس. أي بالمعنى العصري أيضاً: بين رجل العلم ورجل السياسة.

* * *

لم يبدأ الصراع بعد بين أوزيريس وطيفون في عصورنا الحديثة على نحو ظاهر. وإذا جاز التنبؤ، فقد يحتدم الصراع بين رجل العلم ورجل السياسة حوالي سنة 2000 ميلادية.

* * *

إن المرحلة لمرحلة الصراع بين العامل والرأسمالي، (العامل الذي يخدم والرأسمالي الذي يستخدم) ستبدأ ولا شك عندما يستطيع العلم أن يقضي على الجوع "باستنباط الغذاء" كما يقال، من ماء البحر وأشعة الشمس ونحو ذلك. عندئذ ستبدأ قضية جديدة هي: من الذي يحكم الدنيا؟ أهو العالم الذي يخترع ويكتشف ويوفر الغذاء ويغير المصائر؟ أم هو الرجل الآخر الذي يتفوق بالبراعة في الاستحواذ على أزمة الجموع؟ بعبارة أخرى: هل المرحلة التالية لمرحلة الصراع بين العامل الأجير والرأسمالي المغامر، سوف تكون مرحلة الصراع بين العالم الأجير والسياسي المغامر؟.!

* * *

إذا كانت الغلبة للأمهر والأمكر، فهل يجب على رجل العلم أن ينخذل ويسلم؟ أو أن ينازل منافسه بنفس سلاحه؟

* * *

ماذا كان يجب على إيزيس الأم أن تفعل لتضمن النجاح لابنها؟ هل تفعل ما فعلت؟ أو تتمسك بمبادئ زوجها وتعرض ابنها لخطر الهزيمة؟...

* * *

قوة الشعب مثل الشمس لا أثر لها إذا تفرقت أشعتها وتشتت، ولكنها تعمل عملها إذا تجمعت

وتكتلت ونظمت. وهذا التنظيم والتجميع والتكتيل تحذفه دائما وسائل السياسة العملية. لذلك كانت الخطة النهائية لإيزيس في هذه المسرحية، هي الوصول بأي ثمن إلى خداع طيفون وإقناعه بالاحتكام إلى الشعب المتجمع لتعرض أمامه الحقائق كي يصدر رأيه الحر.

***

هل الأهداف السماوية لا تتحقق على الأرض بين البشر إلا بالطرق البشرية؟

***

هل نجاح الدعوات الدينية والاجتماعية ما كان يمكن أن يتم كما تم بغير الالتجاء إلى الوسائل السياسية والعملية التي تكفل النجاح السريع الشامل؟

***

ما هي مسؤولية الكاتب ورسالته، أهي أن يلتزم بالمبدأ كما فعل مسطاط؟ أم أن يلتزم بالقضية؟ كما فعل توت؟...

***

هل الفرق بين الملائكة والبشر هو أن الملائكة لا تعرف من الوجود غير شيء واحد: المثالية. فهي عندها هدف ووسيلة في عين الوقت؟ في حين أن البشر يعرفون شيئين : المثالية والواقعية ولا يمكن أن يتجردوا من الواقع وهم يسيرون نحو مثل أعلى؟

***

ما هو مستقبل الإنسان؟ هل هو في الارتفاع إلى صفاء الملائكة؟ أو هو في بقائه بشراً يكافح ليعادل المثالية والواقعية، ويخرج من هذا التعادل بهدف أنبل وحياة أفضل؟

***